البحث عن الجذور

مؤمنة أبو صالح

مكتبة وناشرون
العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

ح مكتبــة العبيكان ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو صالح، مؤمنة

البحث عن الجذور (رواية)./ مؤمنة أبو صالح - ط٢ .- الرياض، ١٤٢٧هـ.

١١٦ ص؛ ١٤× ٢١ سم.

ردمك: ٨ - ٠١٣ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ ـ القصص العربية - السعودية ٢- المشاكل الاجتماعية

أ ـ العنــوان

ديوي ٨١٣,٠٨٣٩٥٣١ ٢٥٤١ / ١٤٢٧

ردمك: ٨ - ٠١٣ - ٥٤ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٥٤١ / ١٤٢٧

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشـــر

العبيكان Obeikan Publishers & Booksellers

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمــز ١١٥٩٥

هاتف ٤١٦٠٠١٨ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

اسمي (جوزيف) كما سمتني أمي و(يوسف) كما سماني أبي، أريد أن أعرفكم على نفسي، أنا أمريكي من أصل عربي كما تقول أمي وينكر أبي، ديانتي (مسيحي) أخذتها عن أمي ولكن أبي كان مسلمًا فالمفروض أن أنتسب إلى دينه، لذلك سأروي لكم قصتي أو بالأحرى قصة أبي.

أبي من مدينة عربية، تقول أمي إنه كان يعتز بجذوره الشرقية، ويدعي أن عائلته أصيلة ونبيلة... وأن جده كان من المواطنين الذين حاربوا الاستعمار، وأن هناك شارعًا باسمه، ومدرسة باسمه، وأوسمة عديدة.. طبعًا أمي كانت تسخر من هذه الأكاذيب كما كانت تقول؛ لأنها كانت مؤمنة أن أبي كان صعلوكًا مهاجرًا إلى أمريكا بحثًا عن الثراء.. ولكن مع ذلك كانت تقص علي ادعاءاته.. -من باب السخرية- ولكنها كانت تزرع في نفسي فضولاً نحو أبي، وكلما كنت أكبر كنت أتمنى أن تكون هذه الأكاذيب حقيقة، كنت أرى في أحلامي أن أبي أمير عربي.. ينتمي لقبيلة كبيرة، ثم أغارت عليه قبائل أخرى قتلت أهله وهرب هو..

ثم أستفيق من حلمي على واقع مرير، إن أبي هرب أيضًا من أمي وتنكَّر لي ولم يعترف بأبوته لي.

كانت أمي تكرر لي ذلك مرارًا وتكرارًا.. تزرع في نفسي كراهيته وبغضه، كيف تخلى عني وأنا طفل لا أتجاوز السنة، كيف تنكر لأبوته لي، ورفض الاعتراف بي، كرهته جدًا ومع ذلك تمنيت رؤيته، أتوق شوقًا إلى سماع قصته منه هو... لا أدري لماذا الحقد الذي زرعته أمي في قلبي لم يثمر كثيرًا، فمازلت أتمنى أن ألقى أبي.

عندما بلغت السابعة عشرة أصيبت أمي بمرض خبيث فكنت أسهر معها أحيانًا، أسامرها، وفي مرة سألتها: أمي، لماذا هاجر أبي إلى أمريكا، مع أن أصوله نبيلة كما يدعي، ألم تسأليه؟! ضحكت وأجابتني كان يعمل في السياسة وهو لاجئ سياسي؟ قلت لها: ما معنى هذا؟ قالت: يبدو أنه في بلادهم لا يسمح لكل الناس بتداول السياسة. قلت لها باهتمام: وأنت هل صدّقته؟ هزت كتفيها: أعتقد أني صدقته في البداية. ولكن تأكدت أنه كاذب من معاملته السيئة لي.

سألتها في ليلة أخرى: كيف تعرفت على أبي وتزوجته؟ قالت: لقد أحببته، كان هناك شيء مميز فيه، لا أستطيع أن أنكر أنه كان جذابًا ذا شخصية قوية ساحرة.

لقد التقيته في المستشفى حيث كنت أعمل ممرضة، وكان قد دخل إلى المشفى لإجراء عملية استئصال الزائدة الدودية، ولقد أثار فضول جميع الممرضات ذاك الوقت، لأنه لم يكن كغيره من الرجال، لم يحاول أن يعبث مع إحدانا أو أن ينتهز الفرصة لكي يقيم علاقة معنا، بل العكس كان يتحاشى لمسنا، حتى ظنناه شاذًا! كما تعلم هذا شائع في بلدنا، ثم كانت ليلته الأخيرة وكنت أقوم بفك غرز جرحه، رفعت رأسي فرأيته يتأملني بوله.

واحمر وجهه خجلاً مني. فضحكت إذ إنها المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً يشعر بالحياء، فتعلثم واعتذر مني، فقلت له: لم تضايقني ولكن لماذا تنظر إليّ هكذا؟! فأجاب: إن زرقة عيني تذكره بصفاء السماء في موطنه، وإن شعري الأشقر يذكره بسنابل القمح في موطنه. أحسست لحظتها أنه رجل غير عادي. فطلبت رقم هاتفه لكي أحادثه بين

فترة وأخرى، فأعطاني إياه. ومن هنا بدأت علاقتنا تنمو. كنت أراه في أيام الإجازات في الحديقة العامة، نتمشى معًا، نطعم البط، نتناول وجبات خفيفة، وأكثر ما كان يضايقني أنه لم يحاول لمسي أو حتى تقبيلي مع أنه كان متأكدًا أنني لن أمانع، وفي يوم اتصلت به لأدعوه لحفلة عيد ميلادي، وسألني إذا كان هناك مدعوون آخرون فدهشت لطلبه، فقال لي: إنه لا يستطيع أن يأتي لمنزلي بمفرده، أما بوجود آخرين فلا بأس، كذبت عليه وأخبرته أنها حفلة كبيرة وسأدعو جميع الأصدقاء.

جاء ومعه باقة ورد رائعة، واعتذر أنه لم يحضر هدية لائقة لأنه كان عاطلاً عن العمل منذ فترة، دخل المنزل وجلس بهدوء وحاولت أن أدعوه للشراب فرفض قائلاً: إن دينه لا يسمح له بتناول المشروبات الروحية، كنت أعلم أنه مسلم ولكن لم أهتم لذلك، ولم أعرف عن دينه شيئًا، ثم سألني عن المدعوين فأخبرته بكذبتي، وأنها حفلة خاصة لي وله.

فنهض قائمًا واستأذن فأمسكت بيده وقلت له: أنا أحبك وأشعر بحبك فلماذا تهرب مني، ابتسم بهدوء وقال:

أنا مسلم، لا أستطيع أن أجالس فتاة غريبة عني بمفردنا، فقلت له: لن أخبر أحدًا قال: إن الذي أخافه هو (الله)، وكانت المرة الأولى التي أسمعه يقول: (الله) فقلت له: من (الله) قال: GOD، فقلت: إن الله يحب الحب، فقال: الحب يجب أن يكون مشروعًا، أنا أحبك يا إيلين ولكن لا يجوز أن أعلن حبي إلا إذا تزوجتك.

في تلك اللحظة شعرت أنه أروع رجل بالوجود، وقبلت به. وفعلاً تزوجنا بعد أسبوع، لابد أن أعترف أنه كان يحبني حبًا صادقًا وكان وفيًا معي، ولكنه كان عنيدًا متصلبًا في آرائه، ماذا يعني ذلك يا أمي؟ سألتها بلهفة، قالت: يعني أنه كان يحد من حريتي. يضع قوانين كثيرة لتصرفاتي، يتحكم بي، علاوة على ذلك كان أكثر وقته عاطلاً عن العمل؛ لأنه يتشاجر مع أي رب عمل إذا أحس بجرح لكرامته، لا يحب أن يتلقى الأوامر من أحد، كان شديد الاعتزاز بنفسه، وكم نصحته أن يقدم التنازلات والتساهلات، ولكنه لم يستمع لي.

سألتها ماذا كان يعمل؟ ضحكت وقالت: لا أعرف له مهنة محددة، فقد عمل عدة أعمال أذكر في إصلاح السيارات فترة، وكان ماهرًا بإصلاح الأجهزة الإلكترونية،

وأحيانًا في عمليات البناء، سكتت للحظات ثم قالت لي: أتعرف ما هو الأسوأ في أبيك: غيرته الشديدة، كان يتحكم بمظهري، لا يريد أن ألبس القصير، أو أرتدي ملابس السباحة، أن أذهب إلى الحفلات، أن أرقص.

في أول الأمر رضخت له، ولكن ضقت ذرعًا بأوامره التي لا تنتهي، وبدأت المشاكل بيننا تكبر وتكبر، وبدأت أفقد حبي له مع كل مشكلة تولد بيننا، وأسوأ ما في الأمر أنه طلب مني ترك العمل؛ لأنه لم يعد يحتمل احتكاكي الدائم بالرجال، سواء الأطباء أو المرضى. فأخبرته أنه مجنون، وقضينا تلك الليلة في شجار مستديم، غادر المنزل على إثره.

وبعد أسبوع اتصل معتذرًا ودعاني للعشاء، وأصلح الأمور، وقبل نهاية الشهر اكتشفت أني حامل بك وكان سعيدًا جدًا بذلك، وبدأ يجهز لك غرفتك بنفسه، وبدا في أسعد حالاته، ولم يعد يعاملني بعصبية وعنف بل أصبح هادئًا جدًا، وحصل على عمل نجار في الميناء، وكان أجره كبيرًا، وكان ينوي الاستمرار والاستقرار في هذا العمل؛ لذلك يريدني أن أتفرغ للطفل.

والأغرب من ذلك أنه قال: إنه يريد أن يجمع مبلغًا من المال لكي يرسلني مع الطفل لزيارة عائلته. فرفضت ذلك قائلة: لا أستطيع الذهاب إلى غرباء لا أعرف عنهم سوى بعض الصور والرسائل بلهجة غريبة عني، غضب مني وقال بعزم: إن ابني يجب أن يرى جديه وأعمامه وعماته، ويجب أن يتعلم العربية، قلت له: إن الحديث سابق لأوانه وعندما يأتي الطفل إلى النور سنتفق على تربيته. ولكن بدأت أشعر منذ ذاك اليوم بالخوف، فأبوك يخطط أن تنشأ كما نشأ هو. يبدو أنه لم ولن ينسى أصله، فعلى الرغم من السنين التي عشناها معًا لم يغير من سلوكه شيئًا، صحيح أني كنت سعيدة بوفائه لي وخصوصًا عندما أرى الخيانات الزوجية منتشرة بين أزواج زميلاتي ولكن عناده وعنفه كانا سببًا رئيسًا لخوفي منه.

وبعد ولادتك كان يتغيب عن المنزل كثيرًا في عمله، ليثبت لي أنه غير محتاج لمرتبي، وبدأت أشعر بالإهمال وأني مهجورة، وأصابني الاكتئاب من جلوسي الدائم في المنزل، فتعرفت على جار لي كان طبيبًا، فعرض عليّ أن

أعمل في عيادته الخاصة بعد العصر من كل يوم، وافقت حتى أخرج من السجن الذي فرضه والدك عليّ. وصرت أعهد بك إلى الحضانة كل عصر وأذهب إلى عملي منذ الساعة الواحدة حتى السابعة، وتطورت علاقتي مع الدكتور (مايك). كان رجلاً عصريًا متفهمًا من بني جنسي، ليس عنده عُقد أبيك، وكان يشاركني رأيي في أبيك بأنه إنسان متحكم، غيور وعنيف، وفي يوم من الأيام عاد أبوك إلى المنزل مبكرًا ولم يجدني فجن جنونه وبحث عني في كل مكان، وسأل الجيران فأخبروه أني أعمل في عيادة مايك. فجاء إلى العيادة كالمجنون وسحبني من ذراعي بعنف أمام الناس، وفي المنزل صفعني وقال: إن المرأة التي تفعل شيئًا بالخفاء هي امرأة سيئة، فأخبرته أني أكرهه وأني لن أعيش معه بعد الآن.

وغاب عن المنزل شهرين. وفي هذه الفترة توطدت علاقتي مع مايك. الذي كان عزاء لي، وفي ليلة ما عاد ليجد مايك معي، فما كان من أبيك سوى أن تعارك مع مايك وضربني وصار يهزني بعنف وهو يقول: يوسف ابن

من؟! ولكي أتخلص منه إلى الأبد وأضمن أنه لن يأخذك مني أخبرته أنك ابن صديق لي وليس ابنه.

ساد الصمت بيني وبين أمي وأحسست أن أمي متعبة وتريد أن تنام، فقبلت جبينها وانسحبت إلى غرفتي، سهرت مع أفكاري تلك الليلة، إذن أمي دفعته لإنكار أبوتي، طوال تلك السنين، كنت أعتقد أنه فعلها لأنه قاس وسيئ، ولكن هذا الموقف الذي وضع فيه.

يجب أن تكمل أمي القصة، يجب أن أعرف الحقيقة منها، فهي الوحيدة القادرة على نفي ما قالته هي بلسانها.

تمددت في سريري، وأنا أتذكر حياتي مع أمي، وأتذكر كم من الآباء المؤقتين حلوا مكان أبي، كانت أمي تغير أصحابها من حين لآخر كما تبدل ثيابها، أذكر أنها كانت جميلة جدًا ومفعمة بالحياة، عملها كان يأخذ وقتها في النهار، وفي الليل كانت مع هذا الصاحب أو ذاك، ولكنها كانت حنونة معي، اعتنت بي، أدخلتني المدرسة، والآن أصبحت في الجامعة، كانت رغبتها أن أدرس الطب، ولكن للأسف خيبت أملها فأنا أريد أن أدرس الحقوق، أذكر عندما ناقشتها بالموضوع كانت متشبثة برأيها.

وقالت: إن لم تدرس الطب فلن أساعدك بالنفقات، جد لنفسك عملاً واصرف على دراستك الحقوق، أخبرتها أن رغبتي في دراسة الحقوق تعود لرغبتي بتحقيق العدالة لأقاضي الرجل الذي تركني طوال هذه السنين، لم يتحمل نفقاتي ولم يحاول مجرد رؤيتي، سأقاضيه وأقاضي كل أب غير مسؤول، سكتت وانهمل الدمع من عينيها، وقالت: لم أكن أعرف أن موضوع أبيك مؤثر بك لهذا الحد، ولن تجده فأمريكا واسعة جدًا وهو دائم الترحال، أين ستجده؟ قلت لها: لا تخافي سأجده وأنتقم لك منه.

كانت هذه الحادثة منذ سنة تقريبًا، وبعدها بشهر اكتشف مرض أمي العضال، وبدأت رحلة علاجها المضنية. واقتربت منها أكثر وأكثر. لم تحدثني أمي بهذه التفاصيل من قبل، لماذا يا ترى، هل تشعر بدنو أجلها فتريد أن تقترب من الله بسردها الحقائق، غدًا سأجعلها تجيب عن كل تساؤلاتي.

في اليوم التالي دخلت غرفة والدتي وفتحت الستائر ليدخل النور وحاولت أن أوقظها ولكنها للأسف لم تستيقظ. رحلت تلك الليلة وتركتني وحيدًا، رحلت بعد أن

زرعت الشك، رحلت بعد أن زرعت الحقد، قد يتساءل البعض منكم لم أهتم؟!.. فالآلاف غيري يعيشون بلا أب، شيء شائع وطبيعي في أمريكا، وحتى عندما كنت أحادث أصدقائي المقربين عن مشكلة أمي كانوا يسخرون مني ويقولون: لم تهتم؟ عش حياتك يا رجل ولا تنظر إلى الماضي، ولا تهتم لأمك ولا لأبيك، لكني لم أستطع، كان هناك شيء بداخلي يدفعني إلى البحث عن حقيقة أبي والبحث عن جذوري، شيء يسري في دمائي، شيء مختلف عن الذين حولي ومختلف عما ربتني عليه أمي.

بدأت برحلة البحث عن الماضي بعدما دفنت أمي بأسبوع، كنت أفرغ حاجياتها في صناديق لأتبرع بها إلى الكنيسة، فوجدت صندوقًا قديمًا فيه رسائل وصور قديمة، كانت الرسائل مكتوبة بلغة غريبة أعتقد أنها العربية، يبدو أنها من عائلة أبي، وكان هناك رسالتان من داخل أمريكا، والعنوان مدون باللغة الإنجليزية، ولكن ما بداخل الرسالة كان أيضًا باللغة العربية، أخذت الرسائل وعرفت أنها ستكون المفتاح للوصول إلى أبي، إن كان فعلاً هو أبي.

ما إن انتهى الفصل الدراسي وبدأت عطلة الربيع حتى سارعت إلى تجهيز أغراضي والسفر إلى ولاية كاليفورنيا حيث العنوان المدون على إحدى الرسالتين، وكان عنوانًا لمركز إسلامي والمرسل اسمه (محمد علي).

سافرت إلى تلك المدينة وبدأت أفكر ماذا سأقول لهذا الرجل إن وجدته، هذا إن وجدته أصلاً، هل سيتعرف على أبي أم سينكر صلته به، وكنت قد أحضرت بعضًا من صور أبي القديمة حتى يتسنى لي السؤال عنه إن لم أجد الشخص المذكور.

وصلت إلى المدينة مساءً فبحثت عن نزل رخيص، ونمت نومًا متقطعًا لأني كنت مرهقًا جسديًا وعقليًا. وفي الصباح سألت صاحب النزل كيف أستطيع أن أصل إلى المركز الإسلامي، دهش مني، وقال: إن اسمي وشكلي لا يدلان على أني مسلم. فاستغربت منه وسألته كيف تفرق بين المسلم وغير المسلم؟ فأخبرني أنه يهودي، وأن اليهود يعرفون المسلم من بين مائة، استغربت قوله، كنت أعرف أن اليهود يكرهون المسلمين ولكني لم أعتقد أنهم يشمون أثرهم لهذه الدرجة!!

استقليت سيارة أجرة واتجهت إلى المركز الإسلامي وصادف وصولي يوم الجمعة، وهو يوم تجمع المسلمين، وقفت أرقب الجمع من الرجال والنساء، يدخلون إلى المسجد بعد أن خلعوا أحذيتهم، ولاحظت أن النسوة يضعن أغطية تحجب رؤوسهن.

خلعت حذائي ودخلت إلى المسجد، يبدو أنهم لا يفرقون بين المسلم وغيره، جلست على الأرض كما جلس الجميع، ثم وجدت أحدهم يرتقي المنصة ويبدو أنه (الكاهن)

حسبته سيتكلم باللغة العربية ولكنه بدأ يتكلم باللغة الإنجليزية، تأملته، يبدو لي أنه من بلد في شرق آسيا. شدني كلامه بعض الشيء، كان يتكلم عن المذابح التي تقوم بها إحدى الدول الغربية ضد أقلية مسلمة في أوروبا، نعم هذا يتردد دائمًا في الأخبار.

ولكن هنا الكلام مختلف، إنه يقول: إن الحرب ليست من أجل أرض ولا من أجل اختلاف السياسة، إنهم يُقتلون لأنهم يقولون: «لا إله إلا الله»، أي لأنهم مسلمون، تفسير غريب لم أفهمه، ثم مضى يحث الناس على التبرع لإخوانهم الذين يمرون بمحنة شديدة.

ثم رفع يديه إلى السماء وصار يدعو الله بلغة غريبة لم أفهمها إنما رفعت يديّ مثلما فعل الآخرون، ورأيت أن الجميع شرعوا يبكون (والكاهن) نفسه صار يبكي، ثم بدأ يردد بعض الكلمات بصورة جميلة يبدو أنها تراتيل ملحنة لها وقع غريب في النفس أبكت الجميع، حتى أنا أحسست أنها مست شغاف قلبي، ثم قام أحدهم وبدأ بالنداء بصوت مرتفع، فوقف الجميع واصطفوا صفوفًا متتالية، اضطررت للوقوف

مـثلهم، ودفـعني الذي بجـانبي وقـال لـي قف في الصف وكتفك يلمس كتف أخيك، امتثلت لطلبه، وقلدتهم فيما يفعلون، وأنا في غاية الدهشة، رفعوا أيديهم ووضعوها قرب صدرهم، ثم قام (الكاهن) بقراءة تراتيل خاشعة، قلدتهم بكل ما يفعلون، وما إن انتهوا حتى جلسوا جماعات جماعات يتبادلون الأحاديث بلغات غريبة، تأملتهم وأنا لا أفقه شيئًا.

ثم أحسست بيد أحدهم على كتفي استدرت لأجد الرجل الذي كان يقف بجانبي «وكان زنجي الأصل» يبتسم لي ويقول: هل أنت مسلم جديد يا أخي؟ قلت له كيف عرفت؟! قال: يبدو لي أنك لا تجيد الصلاة فقد لاحظت ذلك، هلم بنا نتحدث، اسمي صلاح الدين، ما اسمك؟ قلت له جوزيف، قال: ما اسمك وأنت مسلم؟ قلت: له ليس لي اسم مسلم، قال: بلى اسمك بالإسلام يوسف! تعالى لنتمشى في حديقة المسجد.

خرجنا من المسجد وسألته هل تعرف رجلاً يدعى محمد علي، قال: لا وهل من المفروض أن أعرفه؟ قلت له:

إن بعض الأخوة دلوني على هذا المركز لأصل لهذا الشخص، أجابني: اسمع يا أخ يوسف: أنا جديد في هذه البلدة، حضرت فقط منذ أشهر ولا أعرف الكثيرين هنا ولكن أعتقد أن (الإمام) يعرف، قلت له: ما معنى (إمام)؟ نظر لي بدهشة وقال: الرجل الذي صلّى بنا يدعى (الإمام)، قلت له: هل هذا اسمه؟ سكت ثم قال: منذ متى أسلمت يا يوسف، خفضت عينيّ وقلت له: المفروض أني مسلم منذ ولادتي ولكن.. قاطعني ولكن ماذا؟ لا أفهم شيئًا، قلت له: سأحدثك بصراحة أبي مسلم وأمي مسيحية، ولكني تربيت مع والدتي؛ لذلك لا أعرف من الإسلام شيئًا، كنت أتردد على الكنيسة من وقت لآخر، ولكن لم أحدد انتمائي فقط، الآن أحاول العثور على أبي المسلم.

بانت الدهشة على وجهه وقال: أتعني أنك لست مسلمًا كيف إذن دخلت المسجد؟ كيف صليت معنا ألا تعرف أنه لا يجوز، إنك نجس لست طاهرًا.

قلت له: أنا آسف لم أكن أعرف أن يوم الجمعة بمثابة يوم الأحد. رد علي قائلاً: كل أيام الأسبوع نصلي ولا يجوز أن تصلي معنا قبل أن تسلم.

قلت له: إني لا أبحث عن الإسلام، إني أبحث عن أبي، نظر لي نظرة طويلة ثم أردف: إن بحثك عن أبيك هو بحثك عن الإسلام، أنت بحاجة لمعرفة الإسلام لكي تصل لأبيك، تعال معي سأذهب بك إلى إمام المسجد السيد يحيى، وهو سيرشدك لأبيك أو للإسلام.. لا فرق!!

ذهبت معه ودخلنا إلى مكتب صغير بجوار المسجد ووجدت الرجل الذي يدعوه (الإمام) يجلس إلى مكتب صغير وبجواره بعض الرجال، وكان الحديث يدور للغة لا أفهمها. سمعت صلاح الدين يقول باللغة الإنجليزية: إن السيد يوسف أتى ليسأل أسئلة عن الإسلام. قاطعته قائلاً عن أبي الذي كان مسلمًا. حدجني بنظرة غاضبة وسكت، قام السيد يحيى وصافحني وطلب مني الجلوس وشرح المسألة. أخبرته أن الموضوع شخصي، فطلب ممن حوله الخروج قليلاً، فخرجوا جميعًا وأغلقوا الباب.

أخرجت المظروف المدون عليه عنوان المركز وسألته عن السيد محمد علي. ابتسم بلطف وقال: نعم إن السيد علي هو الذي أنشأ المركز منذ حوالي ثمانية عشرة عامًا. أحسست براحة نفسية وقلت: أين أجده أرجوك.

- ولم تبحث عنه؟

- إني أبحث عن أبي وهو صديقه.

- ما اسم أبيك؟

- أحمد الراوي.

ردد الاسم وكأنه يحاول أن يتذكره، فأخرجت له صورة قديمة لوالدي، نظر طويلاً ثم قال: لا أذكر أني رأيته من قبل، أنا إمام المسجد من خمس سنين فقط وقد يكون والدك غادر المدينة قبل أن أعمل بها.

- ولكن لابد أنك تعرف السيد محمد علي شخصيًا.

- للأسف لقد توفي السيد محمد علي منذ سنتين.

أحسست بخيبة أمل وظهر ذلك مليًا على وجهي، وشعرت بتعاطفه معي إذ قام من مقعده وربت على كتفي

وقال: لا تفقد الأمل ما دام الله موجودًا، فالأمل كبير إن شاء الله، اسمع سأتصل بكل الأخوة القدامى في هذه البلدة وسأسألهم إن كانوا يعلمون أي شيء عن والدك، وسأتصل بك، هل عندك رقم هاتف محدد، هززت رأسي وناولته اسم النزل الذي أقيم فيه ودوَّن الرقم عنده.

- سأفعل ما بوسعي لمساعدتك إن شاء الله.

وقفت واستأذنته، وهممت بالخروج فناداني: يا أخ يوسف، قد يمضي بضعة أيام قبل أن نجمع معلومات عن والدك ماذا ستفعل خلالها؟

- لا شيء محدد.. سأتجول بالمنطقة فهذه المرة الأولى التي أزور بها هذه البلدة.

- ما رأيك أن أعطيك بعضًا من الكتب يبدو لي أنك شاب مثقف، لتقرأ قليلاً عن الإسلام لتتعرف على أبيك أفضل.

وافقت، فأخرج بعضًا من الكتب من مكتبه ثم تناول كتابًا صغيرًا وقال: هذا هو (القرآن الكريم) كتاب المسلمين بمثابة الإنجيل عند المسيحيين.. هذه ترجمة لمعاني القرآن

باللغة الإنجليزية لتتفهم طبيعة ديننا، ولكن في وقت العبادة نقرؤه باللغة العربية، لغة أبيك.

- هل أنت عربي؟

- لا أنا من الباكستان، ولكن اللغة العربية توحدنا؛ لأنها لغة القرآن الكريم الذي نصلي به.

- هل التراتيل التي كنت ترددها بالمسجد هي من القرآن الكريم؟

- نعم.

- يبدو لي أن وقعها في النفس جميل.

ابتسم وقال: ما دمت أحسست بذاك الإحساس فهذه بشارة خير لك، ودعته وخرجت مسرعًا لأجد صلاح الدين ينتظرني.

- هيه يا أخي هل وجدت غايتك؟

أجبته بغموض: ما دام الله موجودًا فالأمل كبير، ضحك صلاح الدين وقال: بداية موفقة وجيدة فأنت تلفظ (الله)

لفظ الجلالة وهذا دليل على شعورك بالنور الذي سيهديك إن شاء الله.

- سيوصلني لأبي.

- لأعظم من أبيك إن شاء الله، هل تريد أن أوصلك لمكان ما؟ عندي سيارة.

- شكرًا لك.. سأكون ممتنًا لك.

ونحن في طريقنا سألته: كيف أسلمت؟ لا يبدو لي أنك ولدت مسلمًا. ضحك وقال: أنا زنجي من نيويورك، نشأت كما تعرف في الشوارع الخلفية للمدينة، بدأت بالنشاط الإجرامي مبكرًا منذ الثالثة عشرة، أتاجر بالمخدرات وسرقة السيارات، أنت تعرف مراهقي أمريكا، وقد كنت واحدًا منهم بالفعل.

ضحكت وقلت: هل تصدق أني لم أجرب المخدرات قط!

اشكر الله أنه حفظك وسلمك من شرها، ثم أكمل قصته قائلاً: في سن العشرين أمسكت بي الشرطة وحكم عليّ بثلاث سنوات في السجن، وهناك كانت رحلتي مع الإسلام، كان هناك داع للإسلام يزورنا ليحدثنا عن الله،

عن الأخلاق، في البدء كنا نسخر منه ونعرض عنه، حتى إننا كنا نهدده أحيانًا، ولكنه كان صبورًا جدًا ولطيفًا جدًا، في قرارة نفسي كنت أستغرب منه لماذا يبذل هذا الجهد مع السجناء.

المبشرون يذهبون لأقاصي الأرض ليبشروا بالمسيحية وهذا الرجل يدعو لدينه في السجن! ما الذي سيستفيده؟ لن ننفعه بشيء. لا نملك أرضًا سيحكمها ولا ثروة سيستفيد منها! ومع ذلك كانت له عزيمة جبارة. وفي يوم ما بعد انتهاء الدرس سألته: ما الذي تبغيه منا؟ ما الذي ترجوه فينا؟ أجابني وفي عينيه نظرة لن أنساها ما حييت «إن هداية أحدكم خير لي من مال الأرض كله»، استغربت وبت ليلتي أفكر بكلامه.

وفي اليوم التالي جلب لي نسخة من القرآن الكريم. سهرت تلك الليلة وأنا أقرأ وأقرأ، وشعرت أنه الخلاص. إنه الراحة لروحي المعذبة، شعرت بالسكينة لقلبي، وبت تلك الليلة وأنا أردد: الله.. الله.. ولم أطق صبرًا حتى موعد الدرس. كنت متلهفًا ولأول مرة أنصت بعقلي وقلبي

وكياني كله، فأحسست بالنور ينسكب في روحي، وأني ولدت من جديد، فصرت أبكي وأبكي كالولد الصغير.

فاقترب المعلم مني واحتضنني: وقال لي ردد: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» رددت تلك الكلمات وأنا أبكي وفرحة كبيرة تغمر صدري، ومنذ ذاك اليوم أصبح اسم «صلاح الدين» هو الذي اختاره لي، وأخبرني قصة القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي الذي أوقف حملة شارلز قلب الأسد. هل درست التاريخ؟

نظرت له ساهمًا وقلت: تقصد حروب تحرير بيت المقدس.

- تقصد تدمير بيت المقدس وتدنيسه لأنه كان في يد المسلمين وكان الصليبيون يحاولون الاستيلاء عليه.

ساد الصمت بيننا ثم قلت له: منذ متى وأنت مسلم؟

- منذ حوالي ست سنوات، وأنا أعمل الآن وأدرس اللغة العربية حتى أفهم أكثر تعاليم ديني وأستطيع تلاوة القرآن الكريم.

وصلنا إلى النزل، فشكرت صلاح الدين. ناداني: أخ يوسف هذا عنواني ورقم هاتفي إذا احتجت أي خدمة ستجدني إن شاء الله بجانبك.

هززت له رأسي شاكرًا واتجهت إلى غرفتي وأنا أفكر بالأحداث التي مرت بي اليوم.

مضى يومان ولم يتصل بي أحد، كنت أتنزه في الصباح بالقرب من المرفأ، ثم أعود سريعًا، خوفًا أن يتصل بي أحدهم، ولكن لا رسائل ولا اتصالات، فبدأت أتصفح الكتب التي أحضرتها من المركز الإسلامي، لكني لم ألمس كتابهم المقدس أقصد (القرآن الكريم)، في اليوم الثالث بدأت أشعر بالملل فخرجت إلى المقهى المجاور، تناولت الإفطار، وبدأت أتجول بالمدينة وتذكرت (جانيت). كانت حزينة عندما ودعتها ونصحتني باستغلال الإجازة بالمتعة ومرافقتها بدلاً من الجري خلف ماض وأوهام. لا أدري هل أنا فعلاً أبحث عن سراب، بدأت عزيمتي تخور وبدأت أفكر بالعودة إلى حياتي السابقة ونسيان أبي والإسلام. عدت إلى النزل عصرًا وقبل أن أصعد إلى غرفتي ناداني

موظف الاستقبال: هناك رسالة لك من السيد يحيى، اتصل به فور عودتك.

سارعت إلى مهاتفته متلهفًا «هل هناك أي خبر؟» رد عليّ بهدوء: إن مصطفى بن الشيخ محمد علي عنده بعض المعلومات عن أبيك ولا مانع عنده من أن تزوره هذه الليلة. أعطاني العنوان وتمنى لي التوفيق.

جلست أرقب الغروب من شرفة غرفتي، حيث كانت انعكاسات الألوان رائعة، سلاسل ذهبية تتماوج على سطح البحر، وكان الهواء منعشًا، ورغم أن المنظر كله يوحي بالبهجة إلا أني أشعر بانقباض بروحي وخوف من مواجهة الحقيقة، هل سألتقيه أخيرًا، هل سيكون هناك نوع من الفرض والإلزام، وإذا رفض رؤيتي والاعتراف بي، هل سأحتمل ذلك، وماذا لو رآني، ماذا بعد ذلك، هل سأستطيع إقناعه أنه أبي، هل سنعود كأب وابن؟ في تلك اللحظات تذكرت كلمة أمي القاسية «إنه ليس ابنك» لن يستطيع نسيانها أبدًا، لن يصفح عني وعنها أبدًا.

حان الموعد فاتجهت إلى منزل مصطفى، قرعت الجرس، فتحت لي فتاة سمراء لا يتجاوز عمرها ست سنوات، ابتسمت لي وقالت: السلام عليكم، ومدت يدها مصافحة، أعجبتني جرأتها فصافحتها، ظهر والدها وابتسم قائلاً: أهلاً سيد يوسف أم تفضل جوزيف، هذه ابنتي سلام، تحب الناس جدًا وهي تحييك بتحية الإسلام، وفسر لي معنى كلماتها لي، ونحن نتجه نحو الصالة، كان منزلاً متواضعًا، ولا يخلو من لمسات شرقية أضافت عليه شيئًا من الأصالة.

- أريدك أن تعرف يا سيد جوزيف أني أنتمي لنفس البلد التي أتى منها والدك.

- حقًا.

- نعم، فأبي صديق لأبيك منذ كانا بالوطن، ثم التقيا بالمهجر، ولكن فضل والدي الاستقرار ووالدك رحالة، ولكن المهم قيل لي: إنك تبحث عنه، هل لي أن أسألك لماذا؟

تنهدت قبل أن أجيبه: في الحقيقة لا أدري بالضبط، ولكن أريد أن أتعرف على أبي أليس هذا من حقي؟

- بلى من حقك، ولكن أرجو ألا يكون السبب القضية التي كانت بينه وبين أمك منذ زمن طويل.

- إن والدتي توفيت وأنا أبحث عن أبي ليجيب عن تساؤلاتي، لا أبحث عنه لأقاضيه على تركه إياي منذ الصغر.

- اعذرني يا سيد جوزيف، أنا لا أريد أن ألحق الضرر بالعم أحمد، فهو بمثابة والدي؛ لذلك سألتك مجرد سؤال لأتأكد ليس إلا.

- أفهم من كلامك أنك على علاقة متينة بأبي، فأين هو إذًا؟

قدم لي كأس العصير وهز رأسه قائلاً: في الحقيقة هناك بعض الرسائل عندي من أبيك كانت بالماضي تخص والدي وقد حضر جنازة أبي منذ سنين، وقد فهمت منه أنه اشترى قاربًا صغيرًا يتجول فيه من ميناء إلى ميناء، أي ليس عنده عنوان دائم. ولكني فكرت أنه من الممكن الاستفادة من بعض العناوين القديمة المرسلة منه.

سـأعطيك إياها. بالإضـافـة إلـى وعـد مني أنه إذا اتصل سـأحـاول أن أرشـدك إلى مكانه مـا دامت نيـتك نحـوه صافية. لقد تعذب العم أحمد كثيرًا في حياته ولا أريد له مزيدًا من العذاب.

ساد الصمت بيننا وبدأت أرشف قليلاً من العصير، ثم خطر لي أن أسأل مصطفى: هل تعرف شيئًا عن عائلة أبي؟

- طبعًا طبعًا، فعائلة أبيك عائلة كبيرة وأصيلة في بلدنا، وجدك كان شخصية وطنية بارزة، ولكن الظروف شاءت أن يهاجر أبوك ويذوق مرارة الغربة ومرارة التشرد، لا أريد أن أشرح لك الظروف، فهي معقدة بعض الشيء، وأعتقد أنك لن تتفهمها، ولكن يكفي أن أقول لك: إن والدك ليس بالسيئ ولا بالشرير الذي تتصوره، إنه شخص له عزة نفس، واعتزاز بكونه مسلمًا شرقيًا من أصل نبيل، ولكن شاءت الأقدار أن تمتحنه، حاول أن تتفهم طبيعته لتعذره.

- شكرًا لك ياسيد مصطفى، سأعطيك عنوان منزلي فأرجو إذا وصلتك أية معلومات عن أبي أن تراسلني أو تهاتفني.

ناولني المظروف الذي يحوي رسائل والدي، وصافحني مودعًا وشد على يدي وقال: آمل يا سيد جوزيف أن تصل يومًا لحقيقة والدك وحقيقتك، وأن تكون فخورًا بكونك يوسف أحمد الراوي وليس جوزيف الأمريكي.

مضت أشهر على زيارتي تلك لمصطفى وعودتي إلى المنزل، قضيت أيامي بين الدراسة وبين مراسلة العناوين القديمة لأبي ولكن دون فائدة تذكر، لا أحد يعلم عن والدي شيئًا، فقدت الأمل تقريبًا وبدأت أنسى الموضوع، وأعود تدريجيًا لحياتي السابقة، (لجوزيف الأمريكي كما يقولون) والذي يقضي معظم أوقاته بين الكلية والأصدقاء. وعملت بعض الأعمال المتفرقة، صحيح أن أمي تركت لي إرثًا ليس بالقليل، ولكن نفقات الجامعة كانت مكلفة فلا بد لي من العمل لضمان مستقبل أفضل، اجتزت السنة الثانية بتفوق، وصممت أن أنهي دراستي سريعًا وبذلت مجهودًا مضاعفًا، وخلال تلك الفترة بقي (القرآن الكريم) مهجورًا في زوايا مكتبي، لم ألمسه، لا أدري لماذا، خوفًا منه أم ماذا؟!

كان الأخ صلاح الدين يتصل بي من آن إلى آخر، وكنت أشكر له اهتمامه ودعواته لي، ولقد زرع في نفسي فكرة بدأت بتنفيذها وهي دراسة اللغة العربية، فالتحقت بصفوف الدراسات الشرقية في الجامعة بجانب دراستي

للحقوق، وبدأت أتعمق بالعربية بالذات وتاريخ الشرق وخصوصًا الشرق الأوسط من المكان الذي أتى منه أبي، لا أدري لماذا، شعور داخلي يدفعني أن أتواصل مع الماضي رغمًا عن هروب ذلك الماضي مني.

مع مضي الوقت وتضاؤل الأمل، وموت الرغبة بالعثور على أبي بدأت أفكر بالمستقبل.. وخصوصًا قد اقترب موعد تخرجي، ماذا أريد أن أكون، رجلاً ناجحًا لامعًا، متميزًا، لماذا؟ هل أريد المال، أم النفوذ والقوة، أم أريد أن أثبت لأبي أنه كان مخطئًا بتركي، وأني أصبحت رجلاً مهمًا بدونه وبدون أصالة شرقه الذي يعتز به.

كانت قد مضت سنتان على لقائي بمصطفى، عندما رن الهاتف في منزلي صباحًا، وكان المتصل هو، سألته: هل هناك من أخبار؟ لقد فقدت الأمل. أجابني بهدوء: جوزيف، إن والدك موجود في ميناء يبعد عنك ساعتين فقط.

- ماذا.. كيف عرفت ذلك؟

- لقد اتصل بي اليوم، فاليوم هو عيد الفطر للمسلمين، اتصل يسأل عني ويبارك لي، وقال: إن محرك قاربه يحتاج لبعض الإصلاحات الضرورية؛ لذلك سيمكث في ذلك الميناء بعضًا من الوقت.

- ألم تسأله لم انقطعت أخباره طوال هذه المدة؟

- بلى.. قال لي: إنه كان دائم الترحال ولم يمكث في ميناء أكثر من يوم، ولقد اعتذر لي، المهم اتجه لتلك البلدة ستجده في المركز الإسلامي أو في الميناء، قاربه اسمه يوسف.

- ماذا؟

- لا تعجب فذاك القارب أصبح ابنه وموطنه وكل شيء له.

شكرت مصطفى وما إن أنهيت المخابرة حتى سارعت إلى ترتيب أمتعتي واستقليت أول حافلة متجهة إلى هناك.

وبدأت أفكاري تأخذني إلى هنا وهناك، هل سيسمعني؟ هل سيسمح لي أصلاً بالكلام معه، وماذا سأقول له؟ وكنت قد جلبت بعضًا من صوره مع أمي كإثبات له حتى يتسنى له تصديقي.

وصلت إلى البلدة عصرًا، ذهبت إلى المرسى فهناك يقين بداخلي أني سألقاه هناك، مشيت على الرصيف أتأمل السفن الراسية وأبحث بلهفة عن اسمي، نعم (يوسف)

أليس هذا اسمي، أخيرًا وجدته، قديم بعض الشيء، لونه أبيض، خطت حروف اسمه بالأزرق، وقفت أتأمله وهو يعلو ويهبط بفعل الأمواج وقلبي يعلو ويهبط بفعل الانفعالات التي تنتابني.

قفزت على سطحه بجرأة، وضعت أمتعتي وبدأت أنادي، هل هناك أحد، لم أسمع صوتًا، ودخلت إلى حجرة القيادة لم أجد أحدًا، نزلت السلالم، وجدت نفسي في غرفة صغيرة بها سرير ومنضدة خشبية ومكتب صغير تناثرت عليه الكتب.

اقتربت من المكتب وبدأت أبحث بالأوراق، كان بعضها فواتير وبعضها الآخر صفحات خطت باللغة العربية التي بت خبيرًا بعض الشيء بها، كانت رسائل موجهة لأسرته، سمعت خطوات على سطح المركب، أحسست بالخوف والقلق والحيرة، خليط من مشاعر غريبة انتابتني لا أستطيع تحديدها.

اتجهت نحو السطح، ورأيته، إنه هو، كان يشبه صورته ولكن مع لحية لم تشذب، والشيب غزا شعره، وعيناه

الداكنتان تلمعان بوميض خفي، قال: من أنت؟ إنها أملاك خاصة، كيف تجرأت على دخول المركب؟

- أنا يوسف، أجبته بهدوء، يوسف أحمد الراوي.

ارتسمت ملامح المفاجأة على وجهه، وردد الاسم مرارًا، ثم استدار بعنف مولّيًا ظهره لي وقال: ليس هناك من أحد يدعى بهذا الاسم!!

أجبته بإصرار، لِمَ لا؟ هذا الاسم مكتوب على هذا القارب أليس كذلك! استدار بغضب وقال: ماذا تريد، بعثتك إيلين لتحاسبني بعد تلك السنين! أم هي لعبة جديدة تريد بها أن تجرّني للمحاكم..

أجبته بهدوء: لا هذا ولا ذاك لقد أتيت بنفسي لأتعرف عليك هذا حقي.

- لست والدك وليس لك عندي حقوق.

- بأمر القانون أنت أبي شئت أم أبيت.

صاح غاضبًا: لن يفرض علي القانون شيئًا، لا أرغب فيه، أتفهم ذلك؟ والآن غادر المركب قبل أن ألقي بك إلى البحر.

جلست بهدوء متحديًا غضبه: لست شيئًا أنا إنسان ولي إرادتي كما لك رغباتك، ولن أغادر قبل أن أحقق ما جئت من أجله.

- ماذا؟ من تظن نفسك.

- لا شيء، أنت قررت عني أني لا شيء في حياتك، والآن جاء دوري لأحدد من أنت في حياتي، ومن أنا في حياتك.

- اسمع، لا وقت عندي لمثل هذه التفاهات.

- ألست تدعي أنك مسلم، والمسلم مسؤول، وأنت مسؤول عني، ضيعتني عشرين عامًا، والآن أريد أن أذكرك بمسؤوليتك.

- لست مسؤولاً عنك، إيلين أمك هي المسؤولة، عد إليها، اسألها من هو أبوك وطالبه بحقوقك.

سكت ومشيت نحو السور ونظرت إلى البحر ثم قلت: إيلين رحلت عن دنيانا، توفيت منذ ثلاث سنوات تقريبًا، ومن ذاك الوقت وأنا أبحث عنك، لأجد حقيقتي من

خلالك، لم أجد نفسي مع إيلين رغم أنها احتضنتني طوال تلك المدة؛ ولذلك قررت أن أبحث عن الشطر الآخر الذي أملكه، فأنا جزء منك ومنها.

- أنا آسف لما حصل لإيلين لم أكن أعرف.

أجبته بحدة، ومن أين لك أن تعرف، أنت لا تعرف عني شيئًا البتة، ولا عن الأيام التي قضيتها من دون أب يرعاني ويعمل على تنشئتي، وأنا الذي كنت أبحث عنك في أحلامي.

صاح بي: اسكت، اسكت أنت لا تعرف شيئًا عن العذاب الذي عشته طوال هذه السنين، عن عذاب الزوج المخدوع، والأبوة التي سرقت مني في لحظات.

أحسست فعلاً أن كلينا معذبان، وكلاً منا له أسبابه، تنهدت واقتربت منه واضعًا يدي على كتفه، ما رأيك أن نقوم برحلة بحرية معًا، لمدة أسبوع فقط، يتعرف كلانا على الآخر، أصدقاء فقط، أو حتى غرباء، لن أطالبك بأن تكون أبًا، فلقد تعودت على غيابك، أقصد غياب الأب عن

حياتي، أريد فقط أن أتعرف على ذلك الرجل الشرقي الذي تزوج أمي ثم رحل عنها.

لم يجبني ولكن بدت في عينيه نظرة ساهمة، وكأنه يعيش في الماضي مرة أخرى، الماضي الذي ذكراه تعذبنا معًا. نظر نحو البحر وخيل لي أنه يرى وجه أمي فيه، حبه لها، كرهه لها، تجمعت في نفسه كل المشاعر في تلك اللحظة بالذات. صراع داخلي يحتدم بداخله، وعذرته، تفهمته، مع أني رجل غربي خال من هذه العقد النفسية التي قالت عنها أمي، لكن الرجل يبقى رجلاً، أقصد مشاعر الرجل الحقيقي، الذي يحمل قلبًا صادقًا بين جوانبه، وعزة نفسٍ ورجولة، يبدو لي جليًا أني ورثت ذلك من نصفي الشرقي، أنا واثق بل متأكد أن دمائي دماء شرقية، وتأكدت الآن أكثر وأنا أتأمل أبي وأتفهم موقفه، أخيرًا قال: أنا موافق إكرامًا لذكرى إيلين، فأنت ما زلت ابنها، ولا يعني هذا اعترافًا مني بك، ولكن وفاءً لذكرى إنسانة رحلت عن دنيانا، مع أنها لا تستحق الوفاء!

- ولكن لا تستطيع أن تتذكر أنها أحبتك ذات يوم.

هز كتفيه وقال: ما الفائدة؟ الحب الحقيقي هو الذي يعيش مع الوفاء، وهذا ما لم تفهمه هي ولا أعتقد أنك سوف تفهمه أنت.

- اسمع، سنقضي الليلة هنا وسنبحر باتجاه الشمال غدًا، وإني أحذرك لن تكون الرحلة سهلة، فالقارب ليس مزودًا بوسائل الراحة، ولا يوجد الكثير من الطعام، في أكثر الأحيان أعتمد على صيد السمك، هززت رأسي موافقًا، ثم سألني بشيء من اللامبالاة: هل تعرف شيئًا عن الإبحار، رددت بحماسة: ليس الكثير ولكن أجيد السباحة والطهو.

- لا بأس إذن.

قضيت الليلة في الحجرة الصغيرة، وكان أبي ممددًا على السرير، لا أعرف إن استطاع النوم أم سهر مثلي، لم أجرؤ على محادثته خوفًا أن أغضبه فيغير رأيه بشأن الرحلة. قضيت ليلتي أفكر كيف سنتعايش في الأيام المقبلة؟ هل سأستطيع فك حصاره؟ هل سيكون الصمت

ضيفنا الثالث دائمًا. لا أدري؟ غلبني النوم، استيقظت على صوت المحرك.. وحركة القارب المفاجئة فقفزت إلى سطح المركب، وجدت أبي وراء عجلة القيادة وقد اعتمر قبعة بيضاء اللون ووضع غليونًا في فمه.

- صباح الخير.

هز رأسه وقال: أعد الإفطار في الأسفل ستجد كل شيء، ولا تنسَ القهوة.

أعددت بعضًا من البيض المقلي والقهوة وصعدت إلى السطح مرة أخرى وناديته، ألن تشاركني الفطور.

- بعد قليل.

بدأت أتأمل ساحل المدينة الذي بدأ يختفي بالتدريج وبدأ نور الشمس يغمر المكان، وكان الهواء باردًا منعشًا، وصوت النورس يقطع الصمت بحدته، بدأت أرشف قهوتي التي أنعشتني، ورحت أتأمل وجه أبي، كانت السنون قد حفرت آثارها على وجهه، وبدا لي أنه ما زال صلبًا ووسيمًا، ولكن قسوة العيش تركت بصماتها عليه.

- هيه.. هل تحب الإبحار دائمًا، ألا تشعر بالحنين إلى الأرض.

أجابني باستهزاء: أي أرض؟

- أرض الوطن.

- تقصد وطنك أنت!

- لا.. أقصد وطنك أنت.

نظر إليّ نظرة طويلة وقال: وما الذي تعرفه أنت عن وطني.

- ليس من الضروري أن أعرف عنه شيئًا، ولكن من الطبيعي أن يحن المرء إلى وطنه.

- ألم تذكر لك أمك شيئًا عني البتة، ألم تقل: إني صعلوك ليس له وطن.

بلى.. لقد قالت لي إنك هارب من بلدك لسبب ما.. ولكن مضى وقت طويل.

أجابني بسخرية، لا تتغير الأمور في وطني بسرعة،

فالتغيرات في العالم الثالث تحتاج إلى قرون، لذلك لا أستطيع العودة بعد.

ساد الصمت بيننا مرة أخرى، ناولته قهوته مع صحن الطعام ووقفت بجانبه وراء المقود.

- لم تسألني عن دراستي، عن عملي، ألست مهتمًا؟

- ولم أهتم؟ هذه حياتك ولا شأن لي بها.

- من باب الفضول فقط.

- لم أكن يومًا بالفضولي ولا بالثرثار، لقد تعوّدت الوحدة فأرجو ألا يضايقك صمتي.

- أفهم ذلك، ولكن كنت أريد أن أبادلك الحديث حتى نتعرف على بعضنا أكثر.

سكت وأنا أشعر بالضيق، وهممت بالعودة إلى السطح، فتناول القهوة وقال: لا تغضب، ما هي دراستك؟

- الحقوق.

- جيد.

أجبته بحنق: ألن تسألني لماذا اخترت هذه الدراسة؟

أجاب باستهزاء: إن المحامي يكسب نقودًا جيدة في أمريكا أليس كذلك؟

- لم أدرس من أجل المال، درست من أجل العدالة، أني أؤمن بمبدأ العدالة.

- العدالة!!

- نعم.. منذ صغري أشعر أني أكره الظلم، وأن العدل شيء مقدس فقررت أن أساعد في تحقيقها.

أجاب بغموض، تحقق العدالة لمن، وأين، وكيف.

- لم يخطر في بالي الكم والكيف، المهم أني سأحاول، في كل مكان هناك ظلم، هنا في أمريكا، هناك في وطنك.

أطلق ضحكة في الهواء وقال: أبعد ما كنت أتصوره أنك خيالي، ظننتك إنسانًا واقعيًا مثل الكثيرين هنا.

- قد أكون ورثت الخيال منك، فالشرق مليء بالسحر والخيال، أليس كذلك؟

لم يجبني، فسارعت إلى تغيير الموضوع وسألته عن وجهتنا.

- ليس لجهة محددة!

- ولكن هذا القارب قديم، لن يصمد طويلاً في عرض البحر.

ورد بعنف: إنه قديم ولكن محركه قوي، سيسافر وسيصمد في أعتى الظروف. أوقف المحرك، وبدأ يتناول إفطاره.

- ألن تحدثني عن الإسلام؟

رفع حاجبيه دهشة، أكملت مسرعًا: أقصد ألا تريد أن تعرف إن كنت قد أسلمت أم لا!

- لا.. لا أريد أن أعرف شيئًا عن قناعاتك.

- غريبة، لقد أخبرني أخ مسلم أنكم معشر المسلمين تتمنون أن يهدي الله على أيديكم الناس.

أجاب بغموض: نعم.

- ألا تريد هذا الثواب العظيم..

لم يجبني فأكملت: كان يخيل لي أحيانًا أنك لو لم تتخل عني لكنت أسلمت.

سألني بحدة: وما دخل هذا بذاك.

- ألست أبي.. طبيعي أن أتأثر بك وأتبعك.

- لم تكن إيلين لتسمح لك.

- لم تكن أمي متحمسة للمسيحية كثيرًا.

- ولم تحاول أن تفهم الإسلام أبدًا.

- تلك أمي.. أنا مخلوق ثان قد أحاول وقد أنجح، كانت أمامك فرصة ولكنك ضيعتها..

لم يجب فأكملت بحدة: كنت طفلاً صغيرًا كان من الممكن أن تربيه كما يحلو لك.. دفع المقعد غاضبًا وقال: لا تبدأ بمحاكمتي الآن.

- معك حق لا يحق لي أن أحاكمك، لا يحق لمخلوق محاكمة مخلوق، سأترك حسابك لخالقك.

- يبدو أنك تملك معلومات وافية عن الحساب والعقاب، فكرة عامة عن الإسلام.

- نعم منذ أن قررت أن أعرفك بدأت أدرس الدين الإسلامي واللغة العربية.

- وماذا وجدت؟

أجبته بهدوء: قد يكون الإسلام عظيمًا ولكنه غير واقعي.

- ماذا! رد علي بغضب ماذا تقصد؟

- أنت مثلاً، مسلم ولكنك بعيد عن تعاليم دينك.

نظر لي بتمعن وقال: وأنى لك أن تعرف ذلك، أنا أحافظ على كل فروضي.

- أنا قرأت أن الإسلام نظام كامل للحياة وليس فقط عبادات.

- بالتأكيد.

والمسلم مطلوب أن يكون عنصرًا فعالاً في هذا العالم.

- طبعًا.

- ولكنك في هروب دائم، أين دورك؟

نظر إلى البحر.. ثم أردف: أحيانًا اعتزال الناس يكون من حسن إسلام المرء.. أمامك الكثير لتتعلمه، لم أجب، فتابع قائلاً: هل قرأت القرآن.. هززت رأسي نافيًا.

- إذن أنت لا تعرف عن الإسلام شيئًا.

ثم قام وأدار المحرك.. ومضيت إلى السطح أراقب البحر ورذاذه المتناثر حول المركب.

ناداني أبي: أحتاجك لتنظيف المركب.

- طبعًا سأساعدك، بدأت أعمل وأنا أشعر أني لن أتواصل مع أبي أبدًا، سألته مبديًا عدم الاكتراث: احك لي عن جدك.

- ماذا تريد أن تعرف بالضبط؟

- هل صحيح هو بطل وطني.

- نعم.. لقد حارب المستعمرين وقاد البلاد إلى الحرية.

- هل أنت فخور به.

- طبعًا.. أنا أعتز بكونه جدي وأنا من نسله.

- هل عندك أخوة؟

- وما همك أنت؟

- أبدًا.. لا شيء محدد، فقط كنت وحيدًا طوال عمري، وكنت أتمنى لو كان لديّ أخوة، فوددت أن أعرف هل عشت وحيدًا مثلي، أقصد عندما كنت في موطنك.

- عندي إخوة وعائلتي كبيرة بعض الشيء.

- وهل ما زال والداك على قيد الحياة؟

نظر بعيدًا وقال بعد تنهيدة: لا توفيا منذ فترة.

- ولم ترهما طوال فترة اغترابك؟

- نعم لم أرهما.

ساد الصمت بيننا ثقيلاً بعض الشيء، ثم قلت: على الأقل توجد ذكريات لك معهما. وكأنما شعر بالمعنى الخفي لكلامي، فتركني وذهب إلى قمرة القيادة وحرك المحرك..

فنزلت إلى الحجرة وتمددت قليلاً، وبدأت أرقب السماء من النافذة الصغيرة. وراودني حنين نحو العائلة «عائلتي». لم أكن يومًا منتميًا لعائلة ما، فأمي لا تربطها علاقات أسرية قوية مع عائلتها، ولم أر أحدًا منهم طوال حياتي. فقط أصدقاء يأتون ويرحلون. وماذا عن أبي، عائلته كبيرة، تمنيت لو أنتمي إليها، يا ترى هل ستتقبلني هذه العائلة يومًا ما. هذه العائلة ذات الأصول العريقة، المعتزة بجذورها، هل ستقبل الصبي الذي أتى من بلاد الغرب، ولكن المهم هل سيتقبلني هو أولاً، أبي.. لا أدري، غفوت وأنا أفكر بتلك الكلمة.. أبي.

استيقظت وأنا لا أدري كم مضى من الوقت، كانت الشمس توشك على المغيب.. ناديت: ألا تريد أن تتناول بعضًا من الطعام؟

- نعم.. حضر لنا الغداء.

جهزت حساء معلبًا وبعضًا من الفاصولياء المعلبة والخبز المحمص وصعدت إلى السطح، أوقف المحرك ونزل لتناول الطعام معي، ثم قال: سيحين المغرب قريبًا.

- هل سنتحرك ليلاً أيضًا.

- لا سأرتاح عند الليل.

بدأنا نراقب أشعة الشمس المودعة وكانت بعض السحب تتجمع في السماء، نظرت إلى تجمع الغيوم وقلت: هل تتوقع عاصفة؟

نظر إلى السماء وقال: نعم.. ستزداد سرعة الرياح بعد قليل، هل أنت خائف؟

- لا لست خائفًا.

سألني باستهزاء: لماذا؟

- لأن «الله» معنا.

رد باستغراب: أنت تقول الله.

- نعم إني مؤمن بوجود الله.

- لا يكفي فقط إيمانك بوجوده.

- وهل هناك معنى أعمق بأن تسلم بوجود الله.

نظر لي وقال: نعم. أن تفعل ما يمليه عليك إيمانك، فالإيمان التزام.

- أن تصلي مثلاً.

- ليست الصلاة وحدها.. إنه التزام بالإسلام في كل نواحي الحياة. اسمع، لم لا تنتهز الفرصة وتقرأ القرآن بهذه الرحلة.. عندي نسخة باللغة الإنجليزية.

- نعم فكرة جيدة ولكن؛

قاطعني: لا تدع كرهك لي يعوقك عن التفكير السليم أو عن تفهم الإسلام.

أجبته بصدق: لا أستطيع أن أفصل بينكما.. أريد أن أصارحك، لقد ربتني أمي على كراهيتك.. قاطعني: إذن لم تبحث عني.

- دعني أكمل.. طوال حياتي كنت أنظر إليك كأسطورة.. وأنت تعلم أن الأسطورة خليط من الكراهية والحب.. ومشاعر متباينة برغم أن أمي كانت دائمًا تردد أنك هربت من مسؤولياتك، ولكن في لحظات قليلة كانت

تتذكر حبك ووفاءك.. وفي هذه اللحظات كنت أشعر أنها نادمة على فقدها شيئًا عاليًا.. قد يكون الحب الذي كان بينكما.. وفي عيد من الأعياد وجدتها تتأمل صورة لك قديمة وكان في عينيها دموع.. قد تكون دموع ندم، حزن.. لا أدري.. المهم قبيل وفاتها اعترفت لي باعتراف صغير.. جعلني أعذرك بعض الشيء..

سألني بلهفة: ما هو اعترافها؟

- اعترفت لي أنها زرعت الشك في قلبك.

نهض مسرعًا: الشك.. إنه الجحيم بذاته.. لقد رمت بي إلى الجحيم طوال هذه السنين، لقد أفقدتني الثقة بكل شيء جميل.

نهضت وراءه قائلاً: لقد قدرت ذلك.. لذلك بحثت عنك.

رد ساخرًا: لتعتذر لي بدلاً منها..

- بل لأحاول أن أقطع الشك باليقين.

أجاب بغضب: لقد تخلصت من هذا العذاب منذ زمن وعليك أن تتغلب عليه.. ما إن تعود إلى الساحل حتى يمضي كل منا في طريقه.. أنهى كلامه ونزل إلى الحجرة، وبقيت وحيدًا أطالع السماء بخوف وقلق.. حيث حل الظلام مكان النور.. وأخفت الغيوم النجوم.. ووشعرت بيأس يطبق على صدري وخصوصًا عندما تأملت البحر الذي بدا هائجًا بعض الشيء.. مظلمًا.. لا قرار له.. مثل حياة الإنسان لا أحد يعرف قراره، لا أحد يختار حياته ولا يستطيع تحديد مصيره.

شعرت برذاذ المطر على وجهي.. وبدأت الأمواج تتلاعب بالقارب والهواء يعصف.. سمعت صوت الرعد.. رأيت خياله يسبقه وسمعته يصيح: ادخل ستبتل..

- وهل أنت قلق عليّ؟

- لا، ولكني لا أريد أن أعتني بمريض بذات الرئة أتفهم.

انهمر المطر شديدًا.. وشعرت بالبلل.. فسارعت إلى النزول وخلعت ملابسي المبتلة وكان يراقبني.. سأدخل لأستحم بالماء الدافئ.

تمدد على السرير ولم يتفوه بكلمة.. أنهيت اغتسالي وتمددت على المقعد ولم أطفئ المصباح.

كان القارب يتأرجح بشكل مخيف.. والضوء يلقي خيالات كأنها أشباح تمر سريعة على الجدران.. لم يكن أبي نائمًا، مؤكد أنه مستيقظ ولكن ما الذي يشغل باله.. ما الذي يدور في ذهنه.. ما كان لي أن أعرف.. ولم أشأ أن أقطع الصمت بيننا.. يكفي العاصفة التي تهدر خارجًا معبرة عما يدور في نفسينا معًا.

مضى يومان لم نتبادل فيهما أي حديث يذكر، أشعر أن هناك شيئًا يدور في خلده منذ ليلة العاصفة.. شيء ما تغير بداخله.. أنا موقن بذلك.. ولكنه صامت.. لا يتكلم. قضيت معظم وقتي وأنا أقرأ القرآن الكريم، لا أستطيع أن أنكر أني انجذبت لكلماته، وناقشت أبي في بعض المعاني وبدا لي أنه مثقف أكثر مما كان يبدو عليه.

سمعت صوته يناديني بعدما أطفأ المحرك، فأسرعت نحو قمرة القيادة، كانت بيده خارطة وأشار إلى الساحل قائلاً: سوف نصل بعد يومين إلى هنا.. ما رأيك أن نصطاد السمك اليوم.

- نعم لقد مللت من المعلبات المحفوظة.

جلسنا على السطح المقابل للبحر ورمى كل منا بشصّ الصيد في البحر.. كان الجو مشمسًا والهواء عليلاً وشعرت بسعادة تغمرني.. إنها المرة الأولى التي أمارس فيها شيئًا من المرح مع الرجل الذي يفترض أن يكون أبي.. داعبت الابتسامة شفتي.. رفعت رأسي نحوه، وجدته يتأملني ثم قال لي: لقد ورثت عن أمك زرقة عينيها.. لقد كانت جميلة جدًا.

- أشكرك.. هل لي أن أسألك سؤالاً خاصًا.

نظر إلى البحر وقال: ماذا تريد أن تعرف؟

- هل أحببت أمي حقًا؟

تنهد وقال: نعم.. وهذا خطئي.. لقد ظننت أنها مختلفة.. أو أن ثقتي بأن حبي لها سيجعلها.. ليس مهمًا الآن.

- ظننت أن حبك لها سيكفيها.

- كنت مغرورًا ومغفلاً.. ودفعت الثمن علاوة على غربتي غاليًا جدًا.

- إن كنت ترى في عيني شبهًا بأمي ألا ترى أني أشبهك ببعض الوجوه.

- ما الذي سأجنيه من ذلك؟

- قد تكسب ولدًا.

- فات الأوان.. سوف أندم على عشرين سنة ملأى بالعذاب.. وبالشك.

- وماذا عني؟ كم أنت أناني ألا تفكر إلا بعمرك الذي مضى؟!.. وماذا عن عمري أنا؟.. وماذا عن عمري أنا.. ألا تفكر بعذابي.. باحتياجي لك.. لعائلة.. للانتماء؟

أجابني بهدوء: ظننت أن إيلين وفرت كل شيء لك.. ألم تشعر بانتمائك، ماذا دهاك يا ولد! أنت أمريكي! حلم كل شاب في العالم.. ألا تعرف ذلك.. أنت حلم الجميع.

- ولكني لا أستمتع بما أملك من مميزات.. أليس هذا غريبًا.. أشعر أن هناك شيئًا ينقصني! نظر إليّ مليّاً، ثم

قـال: هل هذا شـعـورك منذ زمن أم بدأت تحس به من قريب؟

- هل تريد الصراحة.. إنه شعور قديم في داخلي.. ولكنه تنامى بداخلي عندما بدأت بالبحث عنك.

- وماذا عن الإسلام.

نظرت إلى البحر ولم أجبه.

- اسمع يا «يوسف» لا تدع صورتي المشوهة بداخلك تحجبك عن الحقيقة.. حقيقة من الداخل.. إنك تعيش بحالة فراغ روحي.. والإسلام هو الحل لك، ولكن لا تريد أن تعترف.. وذلك بسببي أليس كذلك!

شعرت أن كلامه يفسر لي كثيرًا من الحيرة، الألم الذي أشعر به.. صورته.. قناعاتي.. كل الأمور تداخلت في ذهني في تلك اللحظة.. ثم احسست بالشصّ ينجذب من بين يدي.. فصحت: أظن أنها سمكة كبيرة.. بدأ يساعدني بجذب الصنارة. وأخيرًا تغلبنا عليها.. كانت حقًا سمكة كبيرة، وكانت تصارع في سبيل الخلاص.. تأملتها وشعرت

بشيء من الحزن في صدري.. مد يده إلى كتفي وقال: كن فخوراً بما أنجزت ولا تجعل الأشياء الصغيرة تعكر سعادتك.. سأعد لك الطعام بما أنك الصياد اليوم.

سرعان ما بدأت رائحة السمك تنتشر بالجو وأشعرتني بالجوع.. وحين حان الغداء كان جوٌّ من الألفة نشأ بيننا.. شربنا الشاي على السطح.. وأغمضت عيني وكأني أريد أن أسجل هذه اللحظة في ذاكرتي.

- يوسف، يبدو لي أنك كنت فتى عاقلاً.

ضحكت وقلت: ماذا تقصد؟

- هل كنت رياضيًّا؟

- نعم، كنت ألعب كرة السلة.

- وماذا عن الفتيات. أقصد أنه لابد لك من صديقة في هذه البلاد.. ليس هذا مستهجنًا هنا..

- نعم، ولكن هل تصدقني إذا أخبرتك أني لم أذق الكحول ولا المخدرات، لا أدري لماذا؟! أعتقد أني كنت متأثراً بكلام أمي عنك، فحاولت أن أجعلك قدوة لي في

بعض الأشياء، رغم أن هذا الشيء لا يهمك في كثير أو قليل.

ساد الصمت وشعرت بالدموع تلتمع في عينيه.. شعرت بالمأساة التي نعيشها معًا.. نقاوم ما بداخلنا.. نكابر لا نريد أن نستسلم لمشاعرنا.. غدًا سنودع بعضنا بعضًا ونمضي كالغرباء.. نهض أبي وقال: إنه سيدير المحرك استعدادًا للتحرك.. نظفت المكان.. ونزلت إلى الحجرة.. وشعرت بضيق شديد في صدري فلجأت إلى القرآن.. ثم خطر لي خاطر، لقد رأيته يصلي مرارًا وتكرارًا لم لا أتعلم منه الصلاة، قد يريحني ذلك..

خرجت إلى السطح وفاجأته بقولي: أريد منك أن تعلمني الصلاة.

- ماذا قلت «الصلاة».

أطفأ المحرك ونزل من قمرة القيادة والدهشة في عينيه.. ثم قال: كيف سأعلمك الصلاة وأنت لست مسلمًا.. رددت عليه بسرعة: إذن سأسلم.

نظر لي بفرح وقال: حقًا.. هل أنت مقتنع بما تقول أم مجرد تأثير وقتي.

- لا.. لا.. لقد فكرت جيدًا وأريد فعلاً أن أسلم.

- لا تظن أن بإسلامك ستتأثر علاقتي بك.

أجبته بإصرار: وأنت لا تعتقد أني أسلمت من أجلك.. إني أسلمت لرب العالمين.. أمرني بالاغتسال ثم قال: ردد ورائي: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله».

رددت الكلمات ليس بلساني فقط بل بقلبي وروحي.. وسالت الدموع من عيني.. وورأيته أيضاً يبكي.. لا أدري بكى سعادة أم تأثرًا من بكائي!! وبدأت أتعلم الصلاة.. وكانت أول صلاة لي هي صلاة المغرب، فوقفت بجانبه ورتل القرآن بصوت خاشع.. أحسست أني أسمو وأسمو وأني أصبحت شعاعًا من نور.. وما إن انتهينا حتى استدار وسألني: كيف كانت صلاتك؟.. أجبته بهدوء: عظيمة..

- أنت تعلم أن وجهتنا في الصلاة هي مكة المكرمة.

- نعم.. قرأت ذلك عند دراستي للإسلام.

- وهل ستحافظ على صلواتك الخمس عند عودتك إلى المنزل.

- بالطبع.. سأكون مسلمًا قولاً وفعلاً.

- قال: إن شاء الله، ثم أخرج من جيبه بوصلة وقال: إذن ستحتاج هذه لتحديد القبلة أينما كنت.

أخذتها منه وشكرته وتأملت البوصلة ووشعرت أني أريد أن ألثمها؛ لأنها أول هدية لي من أبي.

عاد إلى قمرة القيادة وأدار المحرك وتركني غارقًا في تأملاتي أنظر إلى السماء وحلكتها... والنجوم وتلألئها.. قلت لنفسي: إني مؤمن منذ زمن، إن وراء عظمة هذا الكون خالقًا عظيمًا واحدًا.. وأعتقد أني وصلت إلى معرفته، قد لا أكون نجحت مع أبي ولكن نجحت مع نفسي.. فأنا أشعر الآن أني أقل حيرة.. وأكثر تماسكًا، وأني يوسف أكثر من جوزيف، وهذا يسعدني كثيرًا.

وصلنا إلى الميناء فقفزت إلى الأرض ورمى لي أبي بحبل غليظ لأربط القارب.. وأنزل المرساة، ووقفت أتأمل قاربه وأفكر هل هو حياته فعلاً! قلت له: ما رأيك أن أدعوك لوجبة طعام حقيقية، ضحك ورد: ليس عندي مانع فأنا جائع.. ومشتاق إلى الطعام الحقيقي. تجولنا في الميناء وكانت بلدة صغيرة ووجدنا ضالتنا في مطعم صغير له إطلالة جميلة على البحر.. جلسنا نتناول غداءنا وقال لي: كيف ستعود إلى منزلك؟ هل عندك مال كاف.. أحسست بانقباض في صدري «هل يستعجل رحيلي» أجبته بهدوء: لا تخف سأتدبر أمري؛ خفض رأسه وتشاغل بالطعام.. سألته فجأة: هل عائلتك تعرف عني شيئًا؟ دهش من السؤال وقال: ماذا تقصد؟

- أقصد هل أخبرتهم عني.. أقصد مولدي.. قاطعني: للأسف أخبرتهم عنك.. ولكن آخر معلوماتهم كانت أننا انفصلنا أنا إيلين وأنك بقيت معها.

- هل يعني هذا أنهم لم يعرفوا بتخليك عني.

رد بغضب: طبعًا لا.. هل تريد أن أشهر بنفسي، إن هذه الأمور غير مقبولة في الشرق إطلاقًا.

شعرت بالراحة «ما زال هناك أمل».. أنهينا الوجبة ورحنا نتمشى قليلاً في الميناء، سألني: ما هي خططك للمستقبل؟

- سأحاول أن أكمل دراستي وأعمل في السلك السياسي كالأمم المتحدة أو برامج حماية الأطفال كاليونسيف مثلاً.. أشعر بميل نحو هذه الأمور أكثر من ممارسة المحاماة.

- وهل تعتقد أنك ستنجح.

رددت عليه بعزم: نعم بالتأكيد.

- لم أقصد النجاح الشخصي؛ أقصد تحقيق شيء يخدم الناس.

- مادام هناك عزيمة سأنجح، وما دام الله موجودًا فالأمل موجود.

استدار وحدّق نظره في عيني، وقال: رغم كل شيء أتمنى لك النجاح وأن تستمر في حياتك بعزيمة وإصرار.. وإن لم يجمعنا دم واحد فقد جمعنا رباط قوي.. الإسلام.. فأنت أخ لي في الدين، وأتمنى لك الخير والتوفيق دائمًا وأبدًا.

أحسست بالمرارة تنشب في حلقي، كنت أود أن أسمع غير هذه الكلمات، كنت آمل أن يقول: إني فخور بك يا بني.. ولكن ما باليد حيلة.

وصلنا إلى المركب.. فحزمت حقيبتي الصغيرة وخرجت إلى السطح لأجده واقفًا ينظر إلى الأفق.

- سأودعك الآن وشكرًا لك على ضيافتك لي..

لم يستدر ولكنه قال: حيني بتحية الإسلام، قل: السلام عليك ورحمة الله وبركاته.. ولا تنسَ الشهادة فهي التي تجمعنا.

رددت كلماته.. ونزلت إلى المرفأ والدموع تغرق عيني وشعرت أن جرحه أعمق من أن يندمل، وأنه يعاقب نفسه قبل أن يعاقبني.

مضت أشهر منذ عودتي.. ولم أسمع عن أبي أي خبر مع أني تركت له العنوان ورقم الهاتف، وبدأ الجميع حولي بالاستعداد لحفلة التخرج مع قرب نهاية العام.. تمنيت لو يحضرها ولكن.. ونسيت أن أخبركم أن أصدقائي لم يفاجؤوا بإسلامي، وقد لخصت لي جانيت ذلك بكلمات «كنت حاضرًا معنا بجسدك ولكن روحك كانت تواقة لشيء أكبر بكثير من واقعنا الذي نعيشه».

وطوال هذه الأشهر لم أنقطع عن دراستي للغة العربية، وقطعت شوطًا طويلاً فيها حتى إني بدأت أحفظ بعضًا من السور الكريمة، وأتبادل الحديث باللغة العربية مع بعض الطلاب العرب في الجامعة، وبدأت أتردد على المركز الإسلامي في البلدة، وتعرفت على مجموعة من الشباب والعرب والأجانب المسلمين، وأكثر ما كان يعجبني فيهم تضامنهم أكثر من مواطنيهم مع قضايا المسلمين في العالم رغم اغترابهم، وكأن الغربة توحد بين قلوب المسلمين فيجتمعون ويتآلفون..

قررت أن أنتقل إلى مدينة أخرى.. لإكمال مشوار الدراسة فعرضت منزل والدتي للبيع.. وجاءني مشتر بسعر مناسب.. ومع تباشير الصيف وانتهاء العام الدارسي أتممت صفقة البيع.. وفي آخر ليلة لي في مهد الطفولة ومدرج صباي كنت أجمع أوراقي في صندوق صغير، فوقعت رسائل أبي القديمة وصوره مع أهله، فخطر لي خاطر، لم لا أسافر إلى موطن أبي، هناك سأتعرف على عائلة لم تنكرني بعد! أبهجتني الفكرة مع أن بها الكثير من المجازفة.. فهم لا يعرفونني ولا أعرف كيف سيستقبلونني!! تأملت الرسائل جيداً وقرأت العناوين المدونة، هناك عنوان ثابت لم يتغير، إذن سأتجه نحو تلك المدينة وأقصد هذا العنوان.. حزمت أمري وتوكلت على الحي الذي لا يموت.

أقلعت الطائرة، ونظرت من النافذة إلى الأرض.. إلى وطني الذي أغادره للمرة الأولى.. ثم نظرت إلى السماء وشعرت بقربي من الله فدعوته ورجوته أن ييسر لي أمري.. تلمست المصحف الصغير الذي كان في جيب قميصي وأحسست براحة نفسية.

سمعت جاري في المقعد يقول لي: هل هذه المرة الأولى التي تزور فيها البلاد؟ أجبته بنعم.. ثم بدأنا نتجاذب أطراف الحديث وعرفت أنه من موطن أبي وأنه طالب طب أنهى اختصاصه وهو سعيد بعودته إلى الوطن.. أخبرته أني في رحلة سياحية للمنطقة فتحمس وصار يصف لي بلاده أنها من أجمل البلاد، بها خيرات وفيرة.. وجوها رائع.. والعرب كرماء سيسعدهم استضافتي، ثم أعطاني عنوانه حتى أتصل به إذا احتجت إلى أي شيء.. شكرته وتوسمت فيه الخير.

مضت ساعات الرحلة الطويلة وأخيرًا أعلن قائد الطائرة عن قرب وصولنا، فنظرت إلى الأرض التي احتضنت أجدادي.. إلى الأرض التي يفتخر أبي أنه منها.. إلى الأرض التي قد تكون موطنًا لي وأنا لا أدري.

توجهت إلى فندق في وسط المدينة وكنت قد اشتريت بعض الكتيبات عن السياحة في هذه المدينة من المطار. كان الوقت ظهرًا والشوارع تغص بالوجوه.. والشمس حارة بعض الشيء.. والضوضاء تملأ المكان.. كل شيء على خلاف المكان الذي أتيت منه، فالشوارع هناك واسعة.. والهدوء يعم المكان.. وليس هناك هذا الكم الهائل من البشر..

عدت إلى غرفتي بعد أن تجولت في الشوارع القريبة من الفندق، وتناولت غدائي في واحد من المقاهي المنتشرة.. تمددت على السرير وفكرت ما الخطوة القادمة؟ هل سأتجه إلى العنوان المدون على رسالة أبي.. أخرجت الظرف من جيبي وتأملت الاسم.. خالد الراوي.. وأبي اسمه أحمد الراوي.. إذن قد يكون عمي.. أغمضت عيني وأنا عازم على زيارة العائلة هذا المساء.. ولن أستبق الأحداث.

وصلت أمام المنزل الذي أشار إليه سائق الأجرة قائلاً بلغة إنجليزية ركيكة هذا هو المكان المقصود، ناولني الظرف وناولته الأجرة.

وقفت أتأمل المكان.. كان قديمًا بعض الشيء.. والأشجار الباسقة تبدو من خلف السور.. حزمت أمري وقرعت الباب، سمعت صوتًا نسائيًا يقول من الطارق.. أجبت باللغة الإنجليزية: هل السيد خالد الراوي هنا؟ ساد الصمت بعض الشيء ثم فتح الباب وأطل وجه رجل يشبه والدي بعض الشيء ولكنه أكثر سمرة وسألني بدهشة: أنا خالد ماذا تريد؟!..

- أنا يوسف ابن أخيك أحمد الراوي، وصلت اليوم من أمريكا.

بانت الصدمة على وجهه ثم احتضنني بشدة وصار يقبلني ويبكي وينادي باسمي.. ثم صاح بأعلى صوته يا أولاد لقد أتى ابن عمكم، لقد أتى ابن الغالي إنه يوسف بن أحمد.

المحادثة بيني وبينه كانت باللغة الإنجليزية، ولكني فهمت كلامه باللغة العربية، وترددت بالاعتراف أني أجيد اللغة العربية ودار بخلدي أن أحتفظ بسري الصغير حتى يتسنى لي معرفة ردود فعلهم.

ظهر وجه شاب تطل من عينيه نظرات الدهشة ومد يده مصافحًا.. حقًا يوسف.. ثم احتضنني وقبلني.. أنا اسمي أحمد.. على اسم والدك.. هل عرفتني.. ألم يحدثك عني عمي أحمد؟ قلت له: آسف لم يحدثني عنكم والدي إلا قليلاً..

تفضل.. تفضل يا بني.

دخلت مع عمي وابنه.. كانت الدار من طراز قديم بعض الشيء، تتوسطها حديقة صغيرة وبعض المقاعد الصغيرة المتناثرة.. أشار إلي عمي بالجلوس على إحداها.. ثم جاءت امرأة تغطي شعرها بخمار أسود وتتبعها شابة أيضًا محجبة.. أشار عمي لهما قائلاً: هذه زوجتي.. وهذه ابنتي سلمى.. نهضت لأحييهم، ومددت يدي مصافحًا.. ففوجئت بصوت سلمى غاضبًا: أنت لا تعرف عن عاداتنا شيئًا، نحن لا نصافح الغرباء.. فنهرها عمي قائلاً: إن يوسف ابن عمك.. وهو ضيف وليس غريبًا، سيتعلم مع الزمن.

- إنها قناعات نؤمن بها ولا نتعلمها مع الزمن.. وأشاحت بوجهها بعيدًا.

فهمت ما دار بينهما من حديث ولكني لم أظهر ذلك.. قلت: متأسف يا آنسة سلمى، يبدو أنني أزعجتك ظننت أننا إخوة.

- ذاك في أمريكا.. هنا نحن غرباء.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد صحيح أنت ابن عمي ولكنك رجل غريب عني.

قاطعها أحمد قائلاً: سلمى أرجوك.. لا مناقشات الآن.. والتفت إلي قائلاً: يوسف اعذرها فهي عنيدة، قل لنا: ما هي أخبارك؟ كيف ومتى وصلت إلى هنا؟

- لقد وصلت اليوم.. وأنا سعيد بلقائكم.

سألتني زوجة عمي بحنو ظاهر: أين تقيم يا بني؟

- في الفندق.

- لا لا.. يجب أن تقيم معنا.. أنت ابننا أليس كذلك يا خالد.

رد عمي موافقًا: طبعًا طبعًا.. اليوم ستجلب أمتعتك وسيساعدك أحمد.

ردت سلمى: أمي، أبي، أرجوكما دعوه فهو سائح.

رد عمي غاضبًا: سلمى أرجوك.. سيأتي يوسف وسيتعرف على جميع أفراد العائلة.. وستحتفل بعودته إلى بلده سالمًا.

ردت بسخرية: بلده.. هذا ليس وطنه.. أنسيتم أنه أمريكي.. أتى لمجرد المشاهدة.

صاح عمي غاضبًا: كفي عن المشاكسة يا سلمى.

قلت بهدوء: دعها يا عمي.. معها حق.. فأنا غريب قد أحمل نفس اسم العائلة ولكني غريب الأم.. غريب الديار.. وغريب العادات، هذا ما تقصده الآنسة سلمى أليس كذلك؟

أحمر وجهها وقالت: آسفة لم أقصد أن أكون قاسية ولكني فهمت من رسائل عمي أنك لم تعش معه أو حتى تتواصل معه.

أجبتها بهدوء: إذا كان ذلك يريحك فنعم لم أعش مع أبي ولم أتصل به إلا متأخرًا، ولكن هناك ظروف يصعب

شرحها، وأضيفي لمعلوماتك شيئًا قد يحسن صورتي أمامك أنا مسلم.. وعن قناعة وليس وراثة من عمك.

بدت الدهشة على وجهها وقالت: حقًا!

قال عمي باعتزاز: الحمدلله يا بني فقد كنا دائمًا نحذر والدك من تأثير والدتك.. أقصد.. أنا آسف كنا نخاف على دينك.

- أفهم قصدك تمامًا يا عمي.. الحمدلله لقد اهتديت للحق بفضل الله وحده.

نهضت زوجة عمي وقالت: هيا يا سلمى نحضر العشاء وأنت يا أحمد اتصل ببقية العائلة وقل لهم: العشاء اليوم هنا بمناسبة رجوع ابن الغالي.

جلسنا نتجاذب الأحاديث وكثيرًا ما كان أحمد يترجم لوالده ما كنت أقول، وسألت أحمد عن دراسته؟

- إني أدرس علم الحاسب الآلي.

- جيد فهو لغة العصر.

- وماذا عنك أنت؟

- لقد أنهيت دراسة الحقوق.. وسأحضر لنيل الدراسات العليا.

- أي أنك ستعود قريبًا لأمريكا.

- طبعًا.

- كم ستمضي من الوقت في زيارة الوطن؟

- لم أفكر بعد بالوقت، ولكن أود لو أزور كل الأماكن الأثرية والشوارع القديمة، بالإضافة لتقوية صلاتي مع الأهل.

ضحك عمي وقال: ما زلت تشعر أنك سائح.

- نعم ولكن أود التعرف على وطني.

قالت سلمى وهي تضع الأطباق على المائدة: لن تتعرف على وطنك من التجوال بأنحائه ومشاهدة المتاحف، المهم أن تعيش فيه وتتعايش مع أهله وناسه.. تدرس تاريخه وتخطط لمستقبله، هكذا يكون وطنك حقًا.

هززت رأسي موافقًا وقلت لها: تملكين منطقًا جيدًا يا آنسة سلمى.

رد أحمد: إنها فيلسوفة المنزل.

ردت عليه بغيظ: لم يسألك أحد عن رأيك بي.

- ماذا تدرسين يا آنسة سلمى؟

ردت باعتزاز: أنا في السنة الثالثة من اللغة الإنجليزية.

- هذا يفسر لغتك الجيدة.

احمر وجهها وقالت: حقًا.. هل لغتي جيدة؟

- نعم أنا أفهمك بوضوح حتى الآن.

قال أحمد ضاحكًا: لا تزدها غرورًا.. فرمته سلمى بوسادة فضحكنا جميعًا وشعرت بترابطهم وحبهم الأسري.

قرع الباب وسارع أحمد لفتحه، ودخل كهل مربوع القامة وأسرع نحوي قائلاً: يوسف حبيبي واحتضنني وشرع يبكي..

قال لي أحمد: إنه العم نبيل.. أخو والدك الكبير.

قبلته وقلت: كيف حالك يا عم نبيل؟

رد أحمد: إنه لا يتكلم الإنجليزية، سأقوم بدور المترجم؛ عمي إن يوسف يسأل عن حالك.

- قل له: أنا بخير منذ رأيته، لم أحلم يومًا بعودة أبيه كي أحلم بعودته هو.

مضى الوقت سريعًا بنا.. وكم هائل من الزوار أتى، عمتي وأولادها، أولاد عمي، أولاد عمومة أبي.. امتلأت الحديقة والجميع متحلق حولي يتأملني وكأنني كائن من الفضاء وأسمع تعليقاتهم الخفية فأبسم، «عمتي تقول: إنني أشبه والدي جدًا».

«عمي يقول: الحمد لله لم يضع يوسف في أمريكا».

أولاد عمتي يتكلمون عن أمريكا ويسألون عنها بانبهار.. الجميع يتحدث ويضحك.. يتناولون الطعام.. خليط عجيب من البشر، بهم دفء وعاطفة لم أر مثيلاً له من قبل، إذا جاءت سيرة أبي تدمع العيون.. وإذا تكلموا عني ابتسموا.. مشاعر صادقة.. عواطف مميزة.. شيء مختلف عما تعودته.. حرارة تذيب الجليد الذي عشته من قبل، وصرت أردد بيني وبين نفسي: سامحك الله يا أبي حرمتني من كل هذا الحب.

انتهت الوليمة.. وزعت سلمى الشاي.. جلس الجميع على هيئة حلقة أنا أتوسطها مع عمي نبيل وعمي خالد وعمتي سهيلة التي لم تفارقني منذ أتت، بدأ الجميع أسئلتهم عن أمريكا وعن العيش هناك.. والنظام والهدوء والتقدم ويتحسرون على تخلف بلادهم.. سألني أحدهم: هل أعجبتك بلادنا؟ رد أحمد باستهزاء: دعه غدًا يرى الشوارع والازدحام وسيجيبك بعد ذلك..

- أنا سعيد بوجودي معكم، ليست الأماكن تسعد الإنسان، المهم القلوب التي يعيش معها.. وأنا أشعر بالفخر أني أنتمي لكم وأني مسلم وأنتم جميعًا مسلمون، فمنذ أسملت بدأت أشعر بالغربة في أمريكا مع أنها موطني، نظرت إلى عيني سلمى التي كانت تناولني الشاي فأشاحت بنظرها عني وكأنها شعرت أني أوجه الحديث إليها ردًا على تهجمها علي بشكل سافر منذ رأتني.

دامت السهرة حتى منتصف الليل ثم أعلن عمي خالد أنني يجب أن أرتاح.. وأنه سيتم بالغد تخطيط برنامج لإجازتي بمشاركة الجميع، ثم التفت إلي وقال: هل ستمانع.. ابتسمت وقلت: لا بالطبع لا وشكرًا لكم جميعًا.

انصرف الجميع ولم يبق أحد غيري وأحمد في الحديقة، سمعت عمي يقول لزوجته:

جهزي غرفة الضيوف ليوسف سينام عندنا الليلة، فردت سلمى: أبي نحن لا نعرفه جيداً.

- ماذا تقصدين؟ إنه ابن أخي.

- نعم ولكنه ما زال أمريكي العادات والتقاليد، سنشعر بالحرج وهو بيننا.

سمعت صوت عمي غاضبًا: لقد تجاوزت حدودك يا سلمى.

ردت عليه زوجته قائلة: لم تقصد سلمى إساءة، إنها تقصد أن يوسف معتاد على نوع من الحرية الشخصية وقد نقيده نحن بعاداتنا وتقاليدنا.

سكت عمي وقال: لا لا هو مسلم وسيلازمه أحمد ويفهمه كل شيء عنا، وإن كانت سلمى ستشعر بالإحراج فغرفتها بالطابق الثاني وسنفهمه بلطف أن يلازم الطابق السفلي دائمًا. شعرت بالراحة لإصرار عمي على

استضافتي فقد يعوضني ذلك عن احتياجي الدائم لحنان الأب واهتمامه.. ولكن ما زال صوت سلمى في أذني «إنه غريب» إنها تشبه أبي.. تتكلم بلسانه.. تعزف على نفس أوتاره.. تنبش الجرح الذي يعشش في أعماق نفسي «يبدو لي يا سلمى أنك أذكاهم.. فهمت رسائل عمك دون أن يشرح.. أحسست أني لست ابن عمك وأني لن أنتمي لكم أبدًا».

مـضت عـدة أيام على زيارتي للمـدينة. تجـولت في أرجائها وصليت في مساجدها.. وكنت أشعر بالسعادة وأنا أطوف بالشوارع والأسواق القديمة، سألني أحمد: ما الذي يعـجـبك بالآثار والقـدم مع أنك أتيت من بلد التـقـدم.. فقاطعته: أحمد، إن أمريكا برغم تقدمها لم تستطع أن تخلق ماضيًا عريقًا لها.. ليس هناك جذور حضارية.. بل قشور صنعتها التكنولوجيا الحديثة..

أما هنا فعبق القدم ينبض بالحضارة الأصيلة، هنا الإنسان بدأ من الصفر.. وارتقت البشرية.. كل شبر من أرضكم يتكلم عن بطولات وأمجاد سالفة.. ثم أتى الإسلام ليتوجكم خير أمة أخرجت للناس، وهذا مبعث فخري، لقد اختبرت الحضارتين وبدأت أشعر باهتزاز الثقة بحضارة الغـرب رغم أني ولدت هناك ونشـأت.. ولكن ليس هناك روح، روح الأشياء أهم من جمودها.. أفهمت قصدي يا أحمد.

- أظن ذلك، ولكن في بلادكم مساحة من الحرية لا توجد في أي بلد ثان..

- يجوز، ولكن أيضًا تمادينا كثيرًا باستخدامنا لمفهوم الحرية، فالجميع ينغمس بملذات ومحرمات تحت شعار أنه يمارس حريته الشخصية، فشاعت الفوضى في المجتمع.. وانهارت قيم ومبادئ كثيرة؛ لذا الحرية يجب أن تحدها ضوابط ولا تكون مطلقة أبدًا.

- نعم، نعم أعتقد هذا.

سمعت صوت المؤذن، فوقفت أمام المسجد ورددت الأذان ثم قلت لأحمد: أريد أن أصلي بهذا المسجد.

رد علي: أتعلم أنه مسجد جدنا «يوسف الراوي» إن اسمه على اسمك، وهذا الشارع يحمل نفس الاسم.. كان جدنا يخطب هنا ويصلي دائمًا بالناس.

- سبحان الله، في تاريخكم يبدأ التأسيس من المساجد، فجدنا كان إمامًا ثم أصبح بطلاً وقائدًا قوميًا.

- نعم أعتقد أن المسجد ليس مكان عبادة فقط مثل الكنيسة بل هو مكان تجمع يوصل الفرد مع الجماعة ويوحد النية والهدف.

- نعم، نعم يا أحمد أحسنت إنه بالفعل هكذا.. هلم بنا نصلي بمسجد جدنا عل حماسه يسري فينا نحن أحفاده..

طوال فترة إقامتي كانت سلمى تتحاشاني وتنظر لي نظرات شك تؤلمني.. كان بودي أن أصرخ بها كفى إن شكوكك تنغص حياتي.. تذكرني بمأساتي.. بأبي.

كان القمر بدرًا في تلك الليلة.. ينشر وشاحه الفضي في الكون، وكانت نسائم الليل منعشة.. وكنت في حديقة الدار وحيدًا لأن الجميع أخلدوا إلى النوم لاعتزامهم الرحيل إلى الريف في الصباح الباكر.. ملأت صدري برائحة الياسمين التي تعبق بالجو وتنشر البهجة والجمال، رفعت رأسي عاليًا فرأيت خيال سلمى تتسلل من غرفتها وتتجه نحو سطح الدار، يبدو أنها تريد السهر في تلك الليلة الساحرة..

تسلّلت إلى الأعلى بهدوء، وصعدت وراءها.. رأيتها تجلس مستكينة على مقعد خشبي صغير.. تتأمل السماء.. لاحظت لأول مرة أنها لا ترتدي وشاحها.. وكان شعرها طويلاً مجدولاً على هيئة ضفيرة.. وكانت يداها تعبثان به.. ثم فكت ضفيرتها وهزت رأسها فانسدل كشلال ليل أسود لا نهاية له.. وصار الهواء يداعبه برقة.. أحسست

فجأة بجمالها.. بطهارتها.. بنقائها.. لم تقع عينا رجل على جمالها.. لم يلمس أحد شعرها.. كم يحق لها أن تفخر بنفسها.. إنها كالدرة النفيسة.. محفوظة لرجل واحد محظوظ.. حسدته ذاك المحظوظ الذي سيمتلك ذاك الجمال وذاك القلب. قفلت راجعًا لغرفتي بهدوء، ودهشت من مشاعري هذه، لقد اعتدت النساء وصحبتهن.. ولكن تلك السمراء هي من أجمل ما رأيت وأكثر ما تمنيت.

سمعت صوت أقدامها وهي تنزل فهمست لها: سلمى.. استدارت فزعة وقالت: ما الذي تفعله؟

- لم أستطع النوم.. ورأيت خيالك ففكرت لو أسهر معك.

نزلت وكانت قد ارتدت وشاحها، سألتني: ماذا تريد يا يوسف، لم أنت مستيقظ؟

- لا أدري، الجو رائع.. والقمر.. وسحر الشرق يحيط بالمكان فلم أستطع النوم.

ضحكت وقالت: أنت شاعر.

- لا ليس بالتحديد.. ولكن أحيانًا أحب أن أكون شاعرًا، أجلسي معي قليلاً.

تلفتت يمنة ويسرى ثم قالت: أين أحمد؟

- إنه نائم، هل يضايقك جلوسنا في الحديقة وحدنا.

- لست معتادة على الجلوس مع الأغراب.

- أنا ابن عمك.

هزت كتفيها وقالت: ولو.. ما زلت غريبًا.

- لم تعامليني بجفاء.

جلست على حافة السلالم وقالت: لم تشعر بذلك؟

- لا أشعر إنه واقع.

- هل تريد الصراحة.. إني أشعر أن هناك شيئًا ما تخفيه..

سحبت مقعدًا وجلست مقابلاً لها وقلت: ما الذي أخفيه؟ هل أضمر شرًا لكم؟ ماذا أريد منكم؟

- لا، لا أقصد ولكن عمي لم يذكرك برسائله أبدًا وكأنما تعمد إخفاءك عنا ثم ظهرت فجأة مطالبًا إيانا بالاعتراف بك كفرد من العائلة.. لا أدري ثمة خطأ ما..

نظرت إليها نظرة طويلة قبل أن أقول: فعلاً أنت ذكية.. نعم هناك شيء ما.. ولكن هل أصدقك القول على أن تعاهديني أن تكتمي سري وتحاولي أن تتفهمي دوافعي.

ساد الصمت بيننا ثم أجابت: هذا يتوقف على ما تقوله.

- مهما كان، لا أريدك أن تقطعي الود بيني وبين أهلك، تنفست بعمق ثم نظرت طويلاً إلى القمر قائلاً: انظري إلى البدر هل هو جميل؟

رفعت عينيها وقالت: أكثر من رائع.

- ولكنه في الحقيقة كوكب معتم، مجرد حجارة ولكن نور الشمس أكسبه جماله وروعته أليس كذلك!

- ماذا تقصد؟

- قد لا أكون ابن عمك ولكن نور الإسلام قربني منكم.

- لا أفهم..

- أقصد إن أبي الذي هو عمك تبرأ مني، تنكر من أبوته لي، وطوال عمري كنت أحقد عليه لأجل ذلك إلى أن

اعترفت أمي بأنها السبب المباشر الذي جعل أبي يتخلى عنا، هي التي جعلته يهرب بزراعة الشك بداخله نحوي فتخلى عني، ثم بحثت عنه والتقيته، حاولت التقرب منه ولكني فشلت. ولكن ما أسعدني أنه لم يستطع نكراني أمامكم، فوجدت أنها فرصة لي لأجد عائلة حتى ولو كان وهمًا لأيام فقط.. نظرت نحو سلمى فوجدتها تنظر لي بدهشة، فقلت لها: ما بك هل صدمتك الحقيقة؟ نهضت مسرعة وهي تقول: تقصد أنك لست ابن أحمد الراوي.

- لا لم أقل ذلك، قلت لك: هو يعتقد ذلك.. ردت بغضب: وما الفارق؟

- الفرق أني ابنه ولكنه لا يريد الاعتراف حتى لا يحمل نفسه ذنب هجري.. أنا متأكد أني ابنه.. أقسم لك.. أشعر بالانتماء لكم.

هزت رأسها وهي تقول: لا أصدق.. ماذا ستفعل العائلة كلها.

- لا أرجوك يا سلمى لا تدمري الجو الرائع الذي أعيشه، لا تخبري أحدًا بهذا السر، سيقع الأذى على

الكثيرين وأولهم عمك أحمد الذي أخفى سره عنكم.. لا تفضحيه أنت.

- وماذا عن إسلامك.. هل هو تمثيل أيضًا لكي نتعاطف معك أكثر.

- لا، لا إسلامي شيء مختلف.. فأنا أسلمت عن قناعة تامة وأصلي عن إيمان، صدقيني.. لا تشكي بهذا أبدًا.

استدارت وقالت: على كل هذا بينك وبين الله عز وجل لا يهمني في شيء.. المهم موضوعك الأول.

- أفهم من ذلك أنك ستخبرينهم.

- هل عرف عمي أنك ستزورنا؟

- لا بالطبع لا.

- هل تعتقد إذا عرف سيخبرنا بالحقيقة حتى لا نستقبلك بيننا.

- سلمى، أرجوك انظري للموضوع بنظرة منطقية وليست عاطفية، أنا أملك كل شيء المال، الشهادة، مستقبلي في أمريكا.. ما الذي يدفعني للبحث عن

جذوري، عن ماض يعتبره الكثيرون نوعًا من التخلف في زمن يتسابق الناس به إلى الأمام، إلى الحضارة، نعم لقد أتيتكم من قمة الحضارة المادية.. لم؟ هل فكرت بذلك لثوانٍ؟ من أجل المال لا يوجد الكثير منه هنا! من أجل جاه! لن يفيدني ذلك بأمريكا، فاسم عائلتي لا يعني شيئًا البتة.. فكري ما هي دوافعي؟

نظرت إلي وقالت: فعلاً ما هي دوافعك؟ شعرت بحنين تجاهها وقاومت شعورًا داخليًا يدفعني إليها.. للغرق في ليل عينيها.. في البراءة المرسومة على تقاطيع وجهها، ثم تنهدت وقلت: الانتماء.. حنين الدائم للعائلة، خفضت عينيها وقالت: يوسف، لو لم تجمعنا روابط الدم.. فأنت أخ لي بالإسلام.. لن أجرح مشاعر عمي.. سأحفظ سرك.. وأحاول أن أتفهم دوافعك.

- أشكرك يا سلمى.. توجهت نحو الدرجة: سلمى.. استدارت وقالت: نعم يا يوسف..

- أنت جميلة جدًا من الخارج والداخل هل تعرفين؟

استدارت بسرعة ولم ترد علي.

في اليوم التالي كنا جميعًا في مزرعة في قلب الريف.. كان الجو رائعًا والضحكات تملأ الأرجاء.. والأطفال يتراكضون في كل مكان.. كان شعوري بالجميع جميلاً.. فكنت أتأملهم وكأنني أنحت صورهم في داخلي.. حتى لا يغادروا قلبي جميعًا.

لمحت سلمى تنسل بعيدًا عن المجموعة.. فتبعتها بهدوء.. جلست بقرب ينبوع من الماء وبدأت برمي بعض الوريقات الجافة في الماء، خلعت حذائي واقتربت من الماء بهدوء ثم قفزت في الماء.. فاستدارت فزعة وقالت: يوسف ماذا تفعل! الماء بارد.. أجبتها ضاحكًا:

- إنه منعش..

- هل أنت معتاد أن تفعل ما يخطر في بالك فجأة.

- تقصدين أفعل ما يحلو لي.

- نعم ..

- وهل هناك أجمل من أن يحقق المرء أمانيه.

- وهل تحققت أمانيك يا يوسف؟

خرجت من الماء واستلقيت على العشب وأغمضت عيني: نعم.. أعظم أماني.. أشعر بالأمان.. أشعر بالقرب من الله.. أشعر بكم كأهل.. أشعر بوطني.. تنهدت ونظرت إلى الماء وقالت: ولكن لم ترَ سوى الصورة المشرقة عنا.. أقصد أنت لم تعرف معاناة الناس هنا.. الجهل.. الفقر.. وحتى قلة الإيمان.. فتحت عيني ببطء وأنا أنظر لها: ولكن مادام هناك أمثالكم فلابد أن تتحسن الأوضاع.

- وهل نحن مميزون برأيك؟

نظرت لعينيها مباشرة وقلت: ألا تشعرين بتميزك يا سلمى؟

احمر وجهها وأدارت وجهها: أنا.. أنا فتاة عادية جدًا مثلي آلاف.

- هذا هو المطلوب.. التزامك.. طبيتك.. حياؤك.. جرأتك بالحق.. إذا كان هناك آلاف مثلك فحال المسلمين سيتحسن.

- كيف لا أفهمك.

- يومًا ما ستصبحين أمًا.. ستربين أطفالك على العقيدة.. على الإخلاص.. ستضربين لهم مثلاً بجدنا..

وهكذا سيعود المجد لأمة المسلمين على يد جيل جديد أنت من مؤسيسه.

- أنت تحلم.

- بالعكس أنا واقعي جدًا.. فالمرأة هي الأساس.

ساد الصمت للحظات ثم قلت: سلمى ألم تفكري بالارتباط بأحدهم؟

احمر وجهها وأجابت: لا.. تقول أمي: إني صعبة بعض الشيء.. ضحكت وقلت لها: خذي وقتك يا ابنة عمي.. أما زلنا أولاد عم..

ضحكت وردت مسرعة: نعم هذا سرنا، هيا بنا لنلحق بالأهل سيبحثون عنك فأنت نجم الموسم.

مضى علي شهر كامل وأنا بين الأهل.. لم أشعر بمرور الوقت، وطوال هذه المدة كنت أدعو الله أن لا يتصل أبي بهم حتى لا يشعر أحد بما أخفيه وأعانيه.. ما عدا سلمى التي حافظت على وعدها لي، لم أكن مستعدًا لأن أخسر حبهم لي وثقتهم بي.

في إحدى الليالي كان السهر يجمعنا أنا وعمي وعمتي، طلب عمي من سلمى أن تعد لنا القهوة.. ثم استدارت عمتي وسألتني فجأة: يوسف ألن تتزوج؟ ضحك عمي من سؤالها وقال: يا سهيلة هل تريدين أن تزوجي يوسف.. ردت عمتي باللغة العربية: نعم أريده أن يتزوج من بنات بلدنا حتى لا يضيع كما ضاع والده.. جاءت سلمى وكانت قد سمعت طرفًا من الحديث فردت: عمتي غير معقول.. إنه مختلف عن شباب بلدنا.. فهو سيتزوج بطريقته الخاصة.. أجابتها عمتي: سلمى إنه مسلم.. فلم لا يتزوج منا؛ أقصد واحدة مسلمة. ثم توقفت فجأة ونظرت إلى سلمى وقالت: سلمى ما رأيك بيوسف؟ تلعثمت سلمى وقالت: ماذا تقصدين؟ التفتت عمتي لعمي وقالت: خالد ما رأيك أن نزوج سلمى ليوسف؟

ارتبكت سلمى وبان عليها الاضطراب والخجل وقالت هامسة: عمتي لا يجوز أن.. قاطعتها عمتي وقالت بهمس أشد: ما بك يا سلمى فهو لن يفهم حديثنا.. نحن نتكلم باللغة العربية وهو لا يعرفها!!

- أرجوك عمتي..

تنهد عمي وقال: إنها فكرة جيدة وسيرحب بها أخي بالتأكيد.. ضحكت عمتي وقالت: إذن لم يبق سوى العريس ثم سنبلغ والده.

بان الذعر في عيني سلمى وقالت: لا يا عمتي توقفي عن هذا المزاح..

رد عليها عمي وقال: ولم لا يا سلمى؟ أنت فتاة ناضجة ومتفهمة، وطوال عمرك تحلمين بالسفر لإكمال دراستك في أمريكا..

- ولكن ليس بهذه الطريقة..

- وهل هناك طريقة أفضل.. تتزوجين يوسف وتذهبين لإكمال مشوار دراستك ثم تعودان معًا لخدمة البلد أفضل من أن يتزوج أمريكية تجبره على المعيشة هناك، حتى لو كانت مسلمة لن تهجر موطنها.. لن يعود أبدًا سنخسره كما خسرنا أباه..

قامت سلمى وقالت: كفى يا أبي، عمتي افترضت افتراضًا وأنت صدقته.. أنا إنسانة لها عزة نفس، كيف تريدون أن تفرضوني على يوسف حتى يعود لكم يوسف

بدلاً من أخيكم الذي ضاع.. ألم تفكروا بمشاعري،.. بكرامتي.. ثم خرجت من الحديقة وهي تبكي..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لم نقصد إيذاء مشاعرها يا خالد.

- عمتي لماذا خرجت سلمى وهي تبكي.. «سألت عمتي ببراءة مصطنعة وكأني لم أفهم شيئًا».

- لا شيء يا يوسف لا شيء.. إنها حساسة بعض الشيء، والآن أستأذن لقد تأخر الوقت.

- عمتي سأمشي معك.

- يا حبيبي هل تريد توصيلي.. لقد تأقلمت مع أهل البلد بشكل رائع.. خالد لم يهن على يوسف أن أمشي وحدي في الليل.

ربت عمي على كتفي وقال: بك الكثير من والدك.

شعرت بوخز في قلبي «أبي» يا ليته كان معي.. يا ليته يسمع.. خرجنا أنا وعمتي وكانت النسائم رقيقة محملة بشذى الزهور..

- عمتي هل حقًا تريدين أن أتزوج من فتاة عربية.

ردت بلهفة: نعم يا حبيبي والله لو عندي بنت لزوجتك إياها..

- ولكنك لا تعرفين شيئًا عني يا عمتي.

- الذي أعرفه يكفيني.. أنت ابن أحمدالراوي.. ويكفي أنك مسلم حقيقي.

- ماذا تقصدين يا عمتي؟

- يوسف، أنا قضيت خمسة وعشرين عامًا مدرسة.. يعني تخرج على يدي أجيال وأجيال، ولي خبرة طويلة بالناس ومعادنهم.. وصدقني هناك المئات من شباب البلد ولكن للأسف لا يملكون الوعي الذي تتمتع أنت به.. يا حبيبي، أنت لم ترث الإسلام كما يرثه البعض اسمًا فقط ولكنك بحثت عن الحقيقة واقتنعت بها.. وهذا يدل على جوهرك وفطرتك السليمة، وأخاف عليك يا ولد إذا ارتبطت بفتاة من مجتمعك أن يطغى حبها عليك وتجذبك إلى القاع مرة أخرى.. فالمرأة يا بني تسمو بالرجل نحو

السماء أو تقذف به إلى القاع.. المرأة في أكثر الأحيان هي الاختبار الحقيقي للرجل.

- كما حصل مع أبي.

- لا ألوم أمك.. فهي لم تختر، ولا ألوم أباك أيضًا فالحب قضاء وقدر، وزواجهما قضاء وقدر، وقد كنت دائمًا أتحسر على أخي وعلى حظه العاثر حتى تعرفت عليك فعلمت أن وراء كل شيء حكمة، فلقد كان مقدرًا لهما أن يتزوجا لتأت أنت إلى الدنيا يا يوسف. فأنت أجمل هدية من الله لأبيك. سيعوضه الله بك عن كل ما رآه من عذاب.. احتضنتني عمتي وهي تبكي وتقول: الحمد لله دائمًا وأبدًا.. شعرت أني أذوب في أحضان عمتي وأتلاشى مع صدى كلامها، أعتز بحبها وثقتها.. وترقرقت الدموع في عيني فمسحتها بيدها وقالت: لا تبك يا يوسف نحن نحبك وحتى والدك، ستبقى دائمًا في قلبه حتى لو عشت بعيدًا عنه.

قبلت يدي عمتي وعدت أدراجي وأنا أحمد الله على نعمه.. لقد نجحت بعدة امتحانات وثقتي بالله عظيمة.. سأبقى أدعوه دائمًا ليحفظني ولا أتوه مرة أخرى عن الطريق القويم.

عدت إلى المنزل فوجدته غارقًا في الظلام، يبدو أن الجميع أخلدوا إلى النوم.. جلست في الحديقة وأنا أسترجع الحوار الذي دار مع عمتي وسلمى، وتذكرت دموع سلمى.. هل بكت لأن مشاعرها جرحت أم لأنها تعرف حقيقتي؟ أم لأنها تكره مجرد فكرة أن تكون زوجتي؟ ما بالي أفكر بها كثيرًا وكأنها أول امرأة في حياتي.. فعلاً.. وتذكرت شعرها الفاحم كالليل، تمنيت أن أملك هذا الشعر أن يكون ليلي لوحدي أنا.. أسهر معه.. أسهر خلاله.. أناجيه وأناجي صاحبته.. نعم أنا بحاجة لامرأة وليست أي امرأة، إنني أريد سلمى لأكمل مشوار حياتي الذي اخترته. صعدت على السلالم وطرقت باب حجرتها بهدوء وخيل لي أن مصباح سريرها ما زال مضاءً، سمعت صوتها: من؟

- أنا يوسف يا سلمى.

مرت دقائق قبل أن تفتح باب غرفتها قليلاً وتقول: يوسف ماذا هناك؟ أجبتها: أريد أن أحادثك بأمر هام..

- انتظر حتى الصباح.

- لا.. الليلة، ثم إنه سر بيننا لا أريد أن أطلع أحدًا غيرك..

سكتت للحظات ثم قالت: انزل إلى الحديقة وسألحق بك..

نزلت إلى الحديقة وجلست على أحد مقاعد القش أنتظرها.. وشعرت أن الدقائق طويلة جدًا.. قبل أن أراها تهبط السلالم.. وقفت بالقرب من حاجز السلم وقالت: ماذا هناك!

- تعلمين جيدًا أني أحب أن أكون صريحًا معك أنت بالذات.. لذلك سأخبرك بأمر أخفيه عنك.. ولكن قبل أن أتكلم أريد أن أسألك سؤالاً أجيبني عليه بصراحة أرجوك.

- ما بك يا يوسف لقد أقلقتني.

- سلمى ما رأيك بي؟

لم ترد علي.. أعدت السؤال بإصرار: ما رأيك بي؟

- كإنسان أنت مسلم جيد أتمنى لك مزيدًا من التوفيق في الحق، كابن عم أرجو أن تزول ما بينك وبين عمي من خلافات وأن تعودا أبًا وابنًا.

قلت لها: كرجل.. تلعثمت: ماذا تقصد؟

- اقصد ما فهمتِه تمامًا.

- استدارت وقالت: يبدو أن عمتي لم تقصر وفاتحتك بالموضوع.. لن أسامحها أبدًا.

- عمتي لا دخل لها بالذي يدور بيننا.

- إذن.. نهضت من مقعدي واقتربت منها وقلت: إذن هذا مني أنا، سلمى أنا معجب بك كامرأة.. أشعر بكيانها.. وبقلبها وأحب أن أكون جزءًا من عالمها.. كما أريدها أن تصبح جزءًا من عالمي.

احمر وجهها وردت: لا يجوز أن نتكلم هكذا.

- أعرف ولكن افهمي طبيعتي لا أريد أن أفرض نفسي على امرأة لا تحبني.. لا أريد أن أتكلم مع عمي بهذا الموضوع وأنا لا أعلم يقينًا إن كنت ترغبين بي وخصوصًا أنك تعرفين الحقيقة.. حقيقتي. لم ترد.

- سلمى الحقيقة هي التي تقف حائلاً بيننا.. جسر لن أجتازه للوصول إليك.. أجيبيني من فضلك. لم تجب.

- إذًا لو كنت ابن أحمد الراوي حقًا لأجبت.. وإذا لم أكن.. فالصمت خير لك من جرحي.

- اتجهت بهدوء نحو السلالم وقالت: ليس عندي إجابة لسؤالك يا يوسف.

- انتظري لم أكمل كلامي.. إذن كلامك عني اليوم ورفضك إياي أمام الجميع كان حقيقة.

توقفت ونظرت لي بغموض وقالت: وكيف عرفت أنا كنا نتكلم عنك ما دامت عمتي لم تخبرك؟

تلعثمت وقلت لها: هذا ما أخفيه إنني أفهم العربية.

- يبدو لي أنك تخفي الكثير يا يوسف.. يبدو أنك لست موضع ثقة.. أضف لمعلوماتك ثورتي لم تكن بسببك أنت كشخص فقط ولكن بسبب الأسلوب.. أنا لا أريد أن أكون نوعًا من الأغلال التي يريدون تطويقك بها حتى لا تضيع كما ضاع والدك.

- سلمى لن تكوني أغلالاً أبدًا لقد اختارك قلبي قبل أن يختارك الجميع.

- آســفــة.. صــعــدت ولم تنظر لي.. وأغلقت بابهــا. أحسست بضيق في صدري.. هل كنت مخطئًا بمشاعري.. هل تسـرعت.. لست بوضع يؤهلني لأكسب الكثيـر.. يكفي مـا نلته حتى الآن.. يجب أن أعود.. لقـد خسـرت قلبي ولا أريد أن أخسر مكانتي في قلوب الآخرين..

سألني أحمد من هو الدكتور أسامة السالم؟

- من أين أتيت بهذا الاسم؟

- لقد رأيته على ورقة بجانب حقيبتك أمس وفيه رقم هاتف.

- نعم لقد تذكرت.. إنه جاري في الرحلة من أمريكا.. طبيب كان يدرس هناك وعاد إلى الوطن.. ولقد أراد أن أزوره.. إذا سنحت لي الفرصة.

- اتصل به اليوم. ليس عندنا شيء محدد..

- لم لا.. «وكنت أشعر بضيق في صدري وقلت في نفسي: الخروج اليوم قد يجعلني أرتاح وخصوصًا أني سأبتعد عن سلمى».

اتصلت بالدكتور أسامة ورحب بي جدًا ودعاني إلى منزله، ذهبنا معًا أنا وأحمد.

تلقاني الدكتور أسامة بترحاب ودعانا إلى شرفة منزله لننعم بنسائم لطيفة محملة بأريج الفل والياسمين الذي توزع في الأنحاء.

جاءني صوت الدكتور يسألني عن أحوالي.. فابتسمت له وأنا أشعر بشيء من الغصة وأجبته: الحمد لله.

مرت ساعتان ونحن نتبادل الأحاديث وأحسست أن أحمد قد ارتاح لأسامة وأعجب به.. حتى إنه دعاه لتناول طعام الغداء في بيت عمي اليوم التالي..

في طريق العودة سألني أحمد عن رأيي في أسامة فأجتبه بصدق: يبدو لي أنه شخص طيب مثقف ومتميز.. تحمس أحمد وقال: علاوة على ذلك لقد عاد إلى الوطن رغم أن الفرصة أتيحت له ليبقى في المهجر.. لقد أكبرت فيه ذلك كثيرًا.

- نعم يا أحمد.. فعلاً فأكثر الناس يفضلون البقاء في أمريكا.

- ما رأيك يا يوسف أن نصلي بجامع جدي اليوم فنحن قريبون منه.

صلينا العصر وجلست بعد الصلاة وأنا أتأمل جدران المسجد وسقفه ويخيل لي أني أسمع صوت جدي يحث

الناس على الجهاد وينصحهم ويدعو الله. سمعت أحمد يعيدني إلى عالم الواقع وهو يقول: يوسف أين أنت.

- أنا مع جدي.

ضحك أحمد وقال: ليس لنا سوى أن ندعو له بالرحمة.

- بل بقي لنا شيء آخر يا أحمد.. أن نحتذي حذوه.

- ولكن ليس هناك استعمار يا يوسف.

- بلى هناك استعمار من نوع آخر، استعمار عقلي، ألم تلاحظ أن الجميع يسألني عن أمريكا.. عن الرفاهية هناك.. عن الكمال هناك.. ألم تلحظ تلهف الشباب للتعرف علي ليس لأني مسلم بل لأني أمريكي.. هذا أكبر دليل على أن العقول مستعمرة.

- لا يا يوسف إنه فقط إعجاب بالحضارة والتقدم.

- بل أكثر من الإعجاب، إنه انبهار أعمى يسوقكم إلى التخلي عن هويتكم الحقيقة.. لتذوبوا بحضارة أمريكا.

- لا تبالغ يا يوسف، البعض لم يتأثر، هذا الدكتور أسامة مثال جيد، درس هناك ومع ذلك حافظ على هوتيه كمسلم، إلى الشرق مرة أخرى..

- الحمد لله.. واحد من مئات.

- يوسف ظننتك معجبًا بنا.

- اسمع يا أحمد، الجيل القديم متمثلاً بعمي وعمتي، يبدو كأنهم أكثر وعيًا من الجيل الحديث، والأسوأ أن الشباب يجتاحه التيار ولا يستمع لنصح الجيل القديم..

- لسنا بهذا السوء يا رجل إننا نصوم ونصلي..

- ليس الإسلام عبادات وشعائر نقوم بها، أعتقد أنه حياة متكاملة، خذ مثلاً أنت، إنك لم تعمل عملاً مفيدًا طوال هذا الوقت الذي أمضيته معك.

- يا يوسف، إني في إجازة.. ثم ماذا تريد أن أعمل..

- لقد تمنيت أن تتردد إلى حلقة من حلقات حفظ القرآن أو حتى تقرأ، حتى إني لم أرك تقصد المسجد إلا قليلاً.

- إني أصلي في المنزل.. ثم إني ذهبت بك إلى المساجد كثيرًا يا رجل.

- وكأنها متاحف فقط، لم أشعر بالروح فيها.. إن المسجد ليس مكان عبادة فقط، إنه إعداد روحي وجماعي بنفس الوقت..

- أتعرف يا يوسف إنك فيلسوف تذكرني بسلمى.

أحسست بوخز في قلبي «سلمى» إنها الحلم المستحيل.. النجمة التي تبرق في العالي.. لن أصل إليها أبدًا فكيف يصل إلى السماء من لا أصل له في الأرض..

- عمي لقد قررت السفر في الأسبوع القادم.

- ماذا تقول يا يوسف، رد عمي بانزعاج.

- أريد أن أرتب أموري قبل بدء العام الدراسي فأنا انتقلت للعيش في بلدة جديدة وهناك الكثير من الأمور ما زالت معلقة.

- لقد فاجأتني يا يوسف، ظننت أنك ستقضي معنا كل الصيف فلقد تعودنا عليك.

ابتسمت وأجبته: أود يا عمي أن أعيش معكم للأبد فأنتم الأهل الذين طالما حلمت بهم..

رد علي بحنان: وما الذي يمنعك يا يوسف.. أنت بمقام أبنائي فابق معنا.

- أشكرك يا عمي، ولكن ظروفي لا تسمح.. فأنا أريد متابعة دراستي وخدمة قضايا المسلمين، وحتى لو كنت بعيدًا عنكم فأنتم في قلبي دائمًا.

دخل أحمد وهو يقول: صباح الخير يا أبي، لقد دعوت صديق يوسف إلى الطعام اليوم يا أبي بعد إذنك.

رد عمي: هذا بيت يوسف وله أن يدعو من يشاء.

شكرت عمي وتوجهت نحو غرفتي، تمددت على السرير وأنا أفكر بسلمى.. لقد تحاشتني خلال اليومين السابقين.. لم أستطع أن أرى ما في عيونها.. لم أستطع أن أقرأ ما يجول بخاطرها.. يبدو أنها النهاية، طريق مسدود، مشاعر لم أحسب لها حسابًا..

جاء الدكتور أسامة وتناول الغداء معنا.. جلسنا في الحديقة ومضى يتحدث بحماسة عن مشروعه وحلمه

بإقامة مركز طبي لجراحة القلب.. ولقد شاركه أحمد وعمي حماسته وحديثه.. وأنا بدأت الأفكار تأخذني بعيدًا عنهم.. ومضيت أقول في نفسي ما هي إلا أيام قلائل يا سلمى وستفصلني عنك أميال وأميال.. ولن تحتاجي للهروب.. أفقت على صوت الباب الخارجي يفتح ودلفت سلمى.. فقال أحمد: سلمى هناك ضيوف معنا.. فألقت السلام وسارعت إلى الداخل وهي تتعثر بحيائها.. كم سأفتقدها..

سمعت صوت الدكتور أسامة يقول: يوسف ما رأيك بنزهة على الأقدام.. وافقته وأنا أتمنى أن تأخذني الرحلة بعيدًا.

بدا الجو لطيفًا.. بعض النسائم المنعشة المحملة بشذى الزهور تهب.. وترحل.. تحملني معها إلى آفاق جديدة.. ومضيت أفكر بوالدي.. كم تألمت بسببه.. كم خسرت بسببه والآن ضم لغنائمه مكسبًا جديدًا، لقد خسرت قلبي بسببه، هل أحمله ذنب ما أعاني.. استعذت بالله.. لا ليس أبي إنه قضاء وقدر.. أفقت من شرودي على صوت أسامة

يسألني: هل سلمى ابنة عمك؟ أجبته: نعم، قال: وما رأيك فيها؟ نظرت إليه بدهشة وقلت: رأيي أنا.. همهم بغموض: نعم فأنت عقلاني جدًا وتستطيع الحكم على الشخصية.. المضمون.. أكيد دارت بينكما حوارات ثقافية.. أعني هل هي مهتمة بهذه الأمور أم أنها كباقي الفتيات.

- ماذا تقصد كالبقية؟

- أقصد النموذج الشائع هنا أو في أمريكا.. سيان.. فتيات «الموضة».. «المكياج».. اهتمامهن محصور بالأمور التافهة فقط.

- لا لا سلمى مختلفة.. شخصيتها قوية وجريئة وفي نفس الوقت عندها حياء المسلمة المعتزة بإسلامها.

- جيد جدًا.. أهنئك بأقاربك يا يوسف مع أنك لم تخبرني عنهم في الطائرة.

- اعذرني.. إنها المرة الأولى التي أزورهم بها، ولم أتوقع منهم هذه الحفاوة.

ضحك أسامة وقال: إنها عائلة أصيلة وكريمة.. ألم يخبروك عن جدك؟

- بلى وأنا فخور به وببطولاته.

- وأنا سعيد بالتعرف عليكم.

لم يمض يومان حتى فاجأني أحمد أن الدكتور أسامة اتصل اليوم وطلب موعدًا عائليًا..

- ما الذي تقصده بموعد عائلي؟

ضحك بخبث وقال: يبدو أنه أعجب بسلمى.. لأن والدته ستأتي للتعرف عليها.

شعرت بوخز في صدري.. إذن هذا هو سر اهتمامه.. يريد أن يتزوج.

- سلمى إنسانة ممتازة تستحق الخير.. قلت: هذه الجملة وأنا أنسحب من الحديقة إلى غرفتي لأجلس وحيدًا مع أحزاني. سمعت طرقًا على باب غرفتي.. قلت: تفضل.. دخلت سلمى وهي تحمل بعضًا من حاجياتي.

- هذه ملابسك لقد قمت بكيها لك.

- شكرًا.

- يوسف.. هل صحيح أنك ستسافر بعد يومين.

- نعم.

استدارت نحو الباب وخرجت بهدوء وكأنما ليست هي التي تسكن حيالي.. ليست هي سبب أحزاني الجديدة.. ضحكت بصوت مرتفع من نفسي أنا الأمريكي.. المفروض أن أكون قويًا خاليًا من المشاعر، متماسكًا.. يجب أن لا تجرفني المشاعر والعواطف.. ومع ذلك أشعر بغصة في حلقي.. وبجرح في قلبي.. ولهيب في صدري.. سأنساها.. سأطوي قلبي على ذكراها.. وسيذوب طيفها مع الأيام مثلما ذابت الكثير من الأحلام.

في المساء طلب مني عمي تأجيل السفر وقال ضاحكًا: قد يكون هناك فرح قريب في العائلة ونتمنى أن تشاركنا الفرح.

- شكرًا يا عمي.. يجب أن أذهب.

وفعلاً حانت ساعة الوداع.. كنت أنظر من النافذة والسيارة تقطع الضواحي في اتجاه المطار.. وأشعر أني أسجل كل ما أراه في مخيلتي.. أحفره في قلبي.. الشوارع القديمة.. الوجوه المنهكة.. المآذن الشامخة.. وعبير الياسمين أريد أن أستنشقه وأحبسه داخل صدري فلا يغادرني أبدًا.. أغمضت عيني لأرى صورة حبيسة في مخيلتي.. صورة لفتاة خجولة تبتسم.. تبكي.. لا أدري.. في داخلي سكنت مع كل الذكريات الحبيبة عن موطني.

قبلتني عمتي وهي تبكي وعمي صافحني مودعًا.. الجميع تركتهم ورائي.. وفي الطائرة جلست أتذكر مرحلة القدوم.. الخوف والظنون، والآن أغادر ومشاعر جديدة حلت.. مريرة أكثر ربما.. تحسست المصحف وذكرت الله تعالى وحمدته على كل حال.

مضى شهر على قدومي وانتظمت الدراسة وانغمست في مسؤوليات جديدة.. وبعثت برسالة قصيرة لهم أخبرهم عن أحوالي وأعطيتهم عنواني ليتسنى لأحمد مراسلتي.

وكان هناك مركز إسلامي في هذه المدينة.. بدأت أتردد عليه بانتظام وأشارك في مجالس الذكر وحفظ القرآن.. وتوطدت علاقتي مع إخوتي المسلمين.. وبدأنا نستعد لاستقبال رمضان.. شهر الخير والبركات.. وكان المركز الإسلامي حافلاً بأنشطة الخير في هذا الشهر الفضيل.. فبعد كل صلاة مغرب نقيم موائد الإفطار بمشاركة الجميع.. ثم محاضرة صغيرة، ثم نصلي العشاء والتراويح جماعة.. ومن ضمن هذه الأنشطة طلبوا منا نحن الإخوة الجدد أن نقص عليهم بمحاضرة كيفية دخولنا الإسلام.

وجاء دوري.. فشرعت أحكي لهم كيف كنت أبحث عن أب تخلى عني.. وعن جذور ضائعة مني فهداني الله للإسلام، فوجدت به المؤنس في الوحدة.. والبديل عن العائلة.. وعوضًا عن أخ.. كل المسلمين إخوتي.. وختمت

قصتي بالدعاء باللغة العربية التي أتقنتها وأحسست بالدموع الحارة تبلل وجهي ولحيتي عندما دعوت لأبي بالرحمة.. وما إن انتهيت حتى أقبل الناس يصافحونني جميعًا، فشعرت بعظمة أخوتهم وحمدت الله على نعمه.

خرجت من المسجد قاصدًا منزلي فسمعت صوتًا يهتف: يوسف. لم أتبين ملامح الرجل في الظلام.. اقترب مني وقال: يوسف ألم تعرفني. عرفته.. إنه أبي.. ظهرت ملامح وجهه واقترب من دائرة الضوء فوجدت آثار الدموع في عينيه وقلت له: أبي.

- نعم.. نعم يا بني.

رميت بنفسي في أحضانه وأنا أنتحب وأقول: حقًا أنا ابنك؟

- نعم يا يوسف أنت ابني.. اغفر لي قسوتي.. سامحني على ماض ضاع فيه عمري أكثر من عمرك.. لقد كنت في المسجد اليوم يا يوسف واستمعت لك.. فهل هناك في قلبك المؤمن الكبير مكان لأبيك العائد النادم.

– آه يا أبي طوال عمري كان هناك متسع لك.. كان ينتظرك ولكن كيف عدت إلي وعرفت مكاني.. كيف تأكدت أني ابنك..

نظر إلى وجهي وقال: هلم بنا إلى منزلك لأحدثك عن كل التفاصيل.

– منذ كنت في القارب وأنا أتأملك لأجد نفسي مرسومًا في تقاطيع وجهك.. لأجد دمائي الشرقية تحركك.. تملؤك بمشاعر دافئة غريبة عن هذا الغرب البارد.. لأجد اسم جدك يليق بك.. باعتزازك بنفسك.. وبحثك عن جذورك.. ولكن كابرت وكابرت.. قتلت الشوق في قلبي لضمك.. وصور لي الشيطان أمك وهي تخبرني أنك لست ابني فكرهت ذلك.. كرهت أن أعترف أن الأبوة هي أقوى من كلمات تطلق في الهواء. أتذكر تلك الليلة العاصفة؟

– نعم أذكرها.

– في تلك الليلة راقبتك وأنت تجلس محدقًا في البحر المظلم وخفت للحظات عليك.. أن يتغلبك اليأس وياديك

قاع البحر المظلم فتستسلم له.. وعندما ناديتك والتقت عيني بعينيك وجدت بهما لمعانًا وإشراقًا وأملاً يبحث عن الحياة.. عن المعنى الحقيقي للحياة والوجود.. عرفت أنك ستصل ليس إلي ولكن إلى الطريق القويم.. إلى درب الهدى.. إلى رب العالمين.. وحاولت يومها أن أكسر الحاجز.. العشرين سنة من الشك ومن العذاب.. ولكن ضعفي غلبني.. وبقيت صامتًا.. سامحني يا يوسف.

احتضنته بقوة وأنا أقول له: لا بأس يا أبي.

- أتعرف يا يوسف ليست فقط مشاعري وإن كانت كافية لي دليل على أبوتي لك..

- ماذا تقصد؟

اقترب مني وأشار إلى كتفي.. إلى وحمة غريبة الشكل كانت مرسومة على كتفي الأيمن.. قال: هذه.. عندي توأم لها على كتفي الأيمن.. ولقد رآها عمك أيضًا وأخبرني بها على الهاتف.

- ماذا عمي..

- نعم عمك «أبو أحمد» لقد اتصلت به منذ فترة وهو فخور بك، وقد حدثني عن زيارتك لهم وعن الوحمة التي ذكرتهم بي.

نظرت إليه وأنا لا أصدق.. إذن كنت منهم لم أكن أخدعهم.. كانوا واثقين وأنا أتعذب في شكي.. وأعذب سلمى.

جلست وأنا أضع يدي على رأسي وأشعر بألم وخسارة.. سمعت صوته وهو يقول برقة: يوسف ألا تريد أن تعرف من أرشدني إليك؟

نظرت له وأنا حزين: من؟ أخرج مظروفًا وقال: هذه الرسالة.

- ما الذي تحويه؟

- اقرأ ألا تجيد اللغة العربية.

فتحت الرسالة وقرأت:

عمي الحبيب أحمد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد:

لم أجد أحدًا ألجأ إليه سواك فمنك المشتكى وإليك.. عمي لقد ضاعت سنوات من عمرك وأنت تفكر هل أنت أب أم لا، أكتويت بنار الشك.. وسوس لك الشيطان ليعذبك.. وللأسف اتبعت غوايته..

وعندما ظهر يوسف وحاول الاقتراب منك صددته.. قسوت عليه.. لم تعطه الفرصة ولكن الله أراد ليوسف النجاة بدونك.. نجاه بهداه.. بإيمانه.. بقلبه الذي امتلأ إيمانًا ونورًا.. وأنت لم تفكر للحظة بالذي ضاع من يوسف.. ضاع منه الأب الحنون والأهل والعائلة.. والأقسى ضاع مني أيضًا.. بتعنتك.. كم كان أبي يقول: إنك عنيد ولم أكن أتصور مدى عنادك حتى جربته بنفسي..

لأني يا عمي أنا واثقة أن يوسف ابن عمي.. رأيت ذلك بقلبي.. رأيت به طيبتك.. قوة جدي.. حكمة أبي.. رأيت به الرجل الذي أحب.. فما بال قلبك لم يشعر به.. أم أنه شعر وعاندته.. أرجوك يا إذا إن ما زال بك فؤاد يحن ويخفق فارحم يوسف.. فإن لم يكن من أجله فمن أجل

سلمى الذي أخذ معه قلبها.. وسافر.. فتخلّ عن ظنونك وعن عنادك.. وفكر بنا نحن أبناءك.. امتدادًا لجذورك.. قد يكون بنا عوضًا عما ضاع منك.

ابنتك سلمى

رفعت الرسالة إلى شفتيّ وقبلتها.. إذن لم توافق على الدكتور أسامة.

سألني أبي: من أسامة هذا؟

- ليس المهم من أسامة.

- فعلاً المهم أنها تنتظرك أنت.. أنت يوسف أحمد الراوي.. فلا تدع انتظارها يطول.. ضحكت من قلبي ورفعت رأسي ويدي إلى السماء وأنا أقول: الحمدلله.. الحمدلله رب العالمين.

العبيكان
Obeikan
Printing & Packaging
Tel. (01) 265 1144